الجِرَاب

أحمد يوسف عقيلة

الجِـراب

حكاية نَجْع

دار البيـــان

للنشر والتوزيع والإعلان

الجراب

حكاية نجع

أحمد يوسف عقيلة

- لوحة الغلاف للفنان التشكيلي عادل جربوع

- الطبعة الأولى: **1 / 2019** م

- رقم الإيداع المحلي : **٤٨٠ / 2018** دار الكتب الوطنية بنغازي

- الرقم الدولي الموحد: ردمك **٢-٠٦٦-37-9959-**

ISBN 978

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب بنغازي – ليبيا

- جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر:

دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان

بنغازي – ليبيا

هاتف 061.2232104 - محمول 091.2090770

إلى الذين عَبَّدوا الطُّرُقَ بأقدامهم..

في سفوح الجبال..

وقِيعان الأودية..

وهم يتغنّون:

(عِزّ البوادي كل يوم رحيل).

وإلى المرأة الليبية..

يوم كانت مؤسسة كاملة..

تستيقظ قبل الغِرْبان..

تُبدع كل شيء..

تصنع البيت بِما فيه.. وبِمَن فيه.

أحْمد

(لَم أنْسَ قَطّ لُعبة من ألعاب الطفولة الْمُتهوِّرة.. بينما لَم تُقدِّم لِي الحِكْمة أيّة ذكرى).

(رافايل أرغولّول)

(التحدُّث عن النفْس.. يا له من لحظة ساحرة.. تواضعها زائف).

(يحيى حَقّي)

إنني أحتفي بِهذا (الجِراب).. لأنه يُجسّد جذور علاقة فطرية وبريئة.. حافلة بالتأمل والقلق إزاء مكان له خصوصيته.. كثيراً ما كان مطروداً من الذاكرة الإبداعية.. (أحمد يوسف) يُعيد الاعتبار لهذا المكان.. ويُشكِّك في فكرة علاقة الرّحّل السيئة بالمكان.. التي طالما تكرّرت في خطابنا الفكري.. وفي الوقت نفسه يُمسك ببراعة هذه المفاصل الْمُهمِّة.. التي أسهمت في تشكيل شِعريته.. وذهنيته.. ووجهة نظره تجاه العالم.. وتجاه الكثير من القضايا.. هذا (الجِراب) منجم كبير.. ومتميز لدراما شعبية لهذا المكان والزمان من العالم.. حافلة بالمناخ الملحمي.. وبالشخوص النابضة بالحياة والأسئلة.. وبالخُرافة والقلق).

(الشاعر سالم العوكلي)

هذه حكاية طفل.. سيرة لذات فردية.. داخل إطارها الجماعي.. ذاكرتي ليست ذاكرة فرد.. بل ذاكرة جيل بأكمله.. إنّها أيضاً حكاية النجع.. حاولت تسجيلها فقط.. كشاهد عيان.. بذلت جهدي لأقف منها على الحياد.. وإن كان الحياد ـ هنا ـ يبدو صعباً.. إن لم يكن مستحيلاً.. بل أنا أُدرك سلفاً أنَّ الحياد أكذوبة كُبرى.. سعيتُ بكل حرص أن أذكر الوقائع كما حدثت.. خشيتُ أن أُهمل أوأحذف أو أنتقي فأقع في التزييف.

في (الجراب) كل شيء في متناول اليد.. الأمور في داخله مُختلطة.. متشابكة.. دون ترتيب.. فإذا أدخلتَ يدك لتُخرِج شيئاً فأنتَ لا ترى.. بل تتحسّس.. لا تعلم ما الذي سيخرج؟ لذلك لم أشأ أ ن أقسِّم الكتاب إلى أبواب وفصول.. تجنَّبتُ أيضاً وضع عناوين.. أردت لهذا النص أن يُقرأ في نَفَسٍ واحد.. كما هي الحكاية الشفاهية الليبية في استرسالها.. وانسيابِها غير المَلجوم.. في تعابيرنا الشعبية ـ إذا أردنا من شخصٍ ما أن يتحدَّث عن كل شيء بتفصيل ـ نقول له: (كِبّ الجراب على فمه).. أعتقد أنَّ هذا ما فعلتُه.. وكطفل يحكي لم أقف عند دلالات كل حكاية.. أو حادثة.. لا أريد إثقال النص.. ولا قطع الاسترسال.

لكن.. لماذا كتبتُ هذا العمل؟ هل لأعيش تلك الحياة من جديد؟ هل هو مجرّد حنين؟ هل هي ممارسة لسُلطة القَصّ.. هل لأنَّ.. كما يقول تودوروف.. (السرد يعادل الحياة.. وغياب القصص يساوي الموت.. ولو أنَّ شهرزاد لم تجد المزيد من القصص لترويها.. لكان عليها أن تفقد رأسها؟!).

(الأسماء الواردة في هذا الكتاب أسماء حقيقيّة..

أعتذر لأصحابِها مُسبَقاً.. أحياءً وأمواتاً).

1

في البراري البِكْر العارية ولدتُ.. حيث لا سقف ولا جدران.. طفولتي تَميّزت بالتماسّ المباشر مع الطبيعة.. في أوائل الخريف تنتفض أبصال العنْصل والبرقع.. تُخرج أوراقها العريضة حتى قبل نزول المطر.. كذلك تفعل زهرة القَرْشُود البنفسجي.. تحتفظ بالماء من الموسم الفائت.. (اللي يدسّ يَلْقَى).. غب المطر تزدان الأرض بالقمَيحا الصفراء الفاقعة.. لكن عندما كنتُ طفلاً يحبو.. ولم يتجاوز نظري مدخل البيت بعد.. وجدتُ تجلّيات الطبيعة في بيت أُمِّي.. في زخارف الأروقة.. والحَمّال.. والهدْمة.. والحَوايا.. والاكليم.. والشواري.. والمخلاة.. كنّا في فصل الربيع ننتقل إلى جنوب الجبل الأخضر.. حيث تتناثر في الأودية والشِّعاب أشجار الرّتَم والسِّدْر.. تتغطى السفوح والوِهاد بالرمث.. والقطَف.. الجِلّ.. العَجْرَم.. الشَّفْشاف.. الكداد الشائك.. الدرياس.. وتعبق برائحة الشِّيح.. الزّعتَر.. المثنان.. القزّاح.. الحَنْدقوقة.. الولَس.. البزّون.. الربْيان.. الشرَونيّة.. القرْضاب.. المرْغاد.. الْخرِيْط.. الأقحوان المشتعل.. اللسلس.. الشقارا.. الشلْطام.. السَبْطة.. الملاّح.. الخبّيز.. الحنْزاب في مجرى السيل.. الكرّاث.. الرَمْرام.. الشفَلَّح..

عين النعجة.. سرّة الكبش.. التمّير ذي الثمرة الشهية تحت الأرض (الباصة).. الحمّيض.. القميلا.. القَمْحي.. السيكران.. البَرقوق.. الطرثوث.. وأعجبها جميعاً الترفاس.. وقد ارتبط عندي بالزُبد.. حيث تُعَد وجبة من الترفاس والزبدة.. حتى قالوا في المثل الشعبي (الطعمة للزبدة.. والشكر للترفاس).

2

أذكر مرة أننا ذهبنا لجمع الترفاس.. مُردِّدين تعويذتنا:

ـ يا لرّقة وين الترفاس.

فترد لرّقة في كل مرة:

ـ نبّته وخذوه الناس.

لكننا لا نيأس.. بل لا نُصدِّقها.. نواصل البحث حتى نحصل على الترفاس.. عندما وضعناه على الجمر.. ما هي إلا لحظة حتى بدأت إحداها تتحرك.. تَهتزّ.. ثم تدحرجت بعيداً عن الجمر.. تشرّخت.. انسلت منها أفعى متوسطة الحجم.. ذات رأس أسود.

3

القَمْحي أيضاً له تعويذته..

ـ يا قمحِيّة ورِّينِي جارتك.. والاَّ نقطع ذيل حمارتك! يا فَقْعِيّة ورِّينِي جارتك.

ولمّا كانت القمحيّة حريصة على ذيل حمارتها.. فهي على استعداد لأن تَشِي بكل جاراتها.. غالباً ما تذهب أُمّي وجارتنا صالحة بنت إدريس الزايديّة لحشِّ القَمْحي.. من أجل إعداد وجبة الكسكسو.

4

كثيراً ما تفيض الأودية بكميات هائلة من المياه.. كانت السيول تستمر أياماً دون انقطاع.. تأتي من الشمال.. من الجبل.. في أحيان كثيرة تكون السماء صافية.. رائقة.. لا تبدو في الأفق مزنة واحدة.. لكننا نسمع هدير السيل من بعيد.. إذا كان من مطرِ بعيد يسمّونه (نَقْل).. قد تكون هناك أغنام وإبل في مجرى

الوادي.. وكن حذير متعارَف عليه.. فإنَّ أول راعٍ يسمع السيل يُطلق في الهواء عياراً ناريّاً.. تتوالَى الطلقات.. كل مَن يسمعه يُطلق عياراً ناريّاً.. ذلك جعل الرصاص في ذاكرتي مرتبطاً بالسيل.. يُطلقون العيارات النارية أيضاً للتبليغ عن هلال رمضان أو هلال العِيْد.

5

ذات شتاء لا أنساه أبداً.. كان ذلك في بداية الستينيات.. كنت طفلاً لم أدخل المدرسة بعد.. تواصل المطر الغزير أياماً دون توقف.. أنا أجد مُتعةً في أن أجري حافياً تحت المطر.. أتلذَّذ بسريان الماء فوق جسدي.. أُحسُّ بأنَّ المطر يهطل في داخلي.. يُبلِّل روحي.. هل جرّب أحدكم إحساس الروح الْمُبلَّلة؟ اجتاح السيل كل شيء.. لم يكن سيلاً عاديّاً.. كان فيضاناً.. طوفاناً جارفاً.. حتى الآن يؤرِّخون بتلك السنة (سنة العَيّرة أوالْهَفْكَة).. وهي تسمية محلية تعني المطر المنفلت.. الفيضان.. فاضت حتى الشِّعاب.. تمددت الغدران.. تحوّل (البلَط) ـ وهو المكان الذي تتجمع فيه مياه الأودية ـ إلى بحيرات كبيرة.. لا يمكن أن أنسى ذلك المشهد المذهل.. حيث كانت الأغنام تدور.. تتقلَّب وسط تيّار السيل.. في

محاولات يائسة للتشبث بالحياة.. كانت تلك أول مواجهة لي مع الموت.

6

ذات سيل ليلي سنة 1963م.. هربنا إلى أقرب منطقة مرتفعة.. لا أدري كيف انقضت تلك الليلة.. بتنا تحت أحد الأجراف الصخرية.. طلبت منّا أمّي أن نقترب من بعضنا من أجل الدفء (اقربوا بعضكم يا طويراتي).. جلّلتنا بردائها.. وباتت هي مقرورة ترتجف.. في الصباح عُدنا إلى البيت.. أخذت أُمّي تتفقَّد ممتلكاتها القليلة.. (أشياء الفقراء الثمينة).. بعض الأشياء جرفها السيل لكنها لم تبتعد كثيراً.. إلاّ طبق السّعَف.. فلا أثر له.. انحدرنا مع الْمجرى.. نُفتِّش الْجُرَف والضفاف.. يئسنا.. قررنا العودة.. فجأة لَمَحْنا الطبق مُتعلِّقاً بشجرة رتَم وسط الْمجرى.. عندما يأتي السيل لابد أن يأخذ شيئاً ما.. نظرت أمّي إلى السيل الذي يصنع الرغوة في المنحدرات.. قالت وهي تبتسم ونهزّ رأسها: (السنة الربيع كبير).

7

كنَّا نلعب على ضفة وادي (القَلْتة).. وهو من الأودية الكبيرة التي تسيل من الشمال إلى الجنوب.. كنا نبني بيوتاً من الحجارة في أحد الروافد الصغيرة التي تَصبّ في الوادي.. كان الْمجرى مليئاً بالرمل والحصى الذي ندعم به بيوتنا الحجرية.. في المساء هطلت أمطار غزيرة.. سالت الروافد.. فاض الوادي.. اجتاح السيل قريتنا الحجرية.. خرّب كل منازلها.. إلا البيت الذي بنيته أنا.. فإنه صمد.. بسبب تراكم الرمل والحصى حول جدرانه.. وبسبب شجرة رتَم كانت تفرق المياه.. تحدُّ من انحدارها.. في تلك الليلة لم أَنَم إلا متأخِّراً.. كنت أشعر بابتهاجٍ ما.. بنشْوَة.. لأنني بنيت شيئاً استعصى على السيل.

8

عندما نَنْزِل بالقرب من الغُدْران.. غدير الزَّيّانة.. غدير الشُوشاطة.. فإنَّ أكثر ما يبهرني هو زغاريد الضفادع.. كنت أقترب من الغدير بحذر.. لأضبطها مُتلبِّسة بالزغرودة.. لكنني لم أُوفَّق إلى ذلك أبداً.. غير أنَّ رنين الزغاريد.. والماء الرقراق الشفّاف الذي

يعكس السماء والسُّحُبَ العابرة.. يجعلني أجلس على الصخرة المحاذية للغدير وأنا أُحسُّ بعُذرية العالم.

عندما تكبر الفتاة.. تبدأ النساء تعليمها أصول الزغردة.. يطلبن منها أن تلحس لسان جرانة.. فتلك أفضل وسيلة لإتقان الزغرودة.. يُقال للمرأة التي تتقن الزعرودة: (فلانة تقول لاحسة جرانة)!

9

أمّا عن قطعان الغزلان ـ حلية الصحراء ـ في تلك الفترة.. فحدِّث ولا حرج.. كنا نراها ونحن في البيت.. لم نكن نعرف السيارات.. لم تحلّ بعد لعنة البنادق الأوتوماتيكية.. لم يكن هناك ما يزعج الغزلان السارحة سوى الكلاب.. كانت (الجلُوبة) أكثر من قطيع الماعز.. كان الغزال في كثير من الأحيان يصل إلى حدود الغابة.. يا الله كيف انقرضت كل تلك الأعداد الهائلة!

في الليل.. قبل أن نأوي إلى الفراش.. تقول أُمِّي:

ـ اسمعوا.. اللي يرقد عطشان تسقيه الغزَيّلات.

هي حيلة حتى لا نبول في الفراش.. فنحرص على عدم الشرب.. وتزدحم أحلامنا بالغزلان.

10

لكن متعتنا الحقيقية كانت في الحفر على الجرابيع.. في الشتاء لا يسدَّ الجربوع مدخل النفَق.. بل يبقى مفتوحاً ويسمّى (المسْلاقة).. ذلك لعدم وجود الأفاعي.. حيث تكون في بيات شتوي.. لكن ما إن تنتهي فترة السّبات.. حتى يُعمِّق الجربوع نَفَقَه.. يسـد الفوهة بكثير من التراب.. يسوِّيه بطريقة خاصة تُسمّى (الدّمانة).. عندما نبدأ الحفر تكون الكلاب متحفِّزة.. تتلفت.. تتشمّم الأرض.. ترقُّباً لانبثاق الجربوع من مكانٍ ما من سطح الأرض (طرباقة).. وهو مَخْرج سرِّي للطوارئ.. يُسمّى في اللغة الفصحى (النافقاء).. التي جاءت منها كلمة النفاق.. لأنَّ المنافق يملك وجهين.. كما يملك الجربوع مَخرجين.

11

ذات يوم جاءنا خال أُمي محمد بومشهية العَريفي.. بعد الغداء الْتقط الفأس.. ذهب قُبالة البيت ليحفر لنا على الجُرذ (الجرَد).. فحذَّرتْه أُمي من وجود (بمبة) ضخمة من مخلّفات الحرب العالمية الثانية.. (الحرب الكبيرة) كما يسمّونها.. فاتّجه خلف البيت.. شرع في الحفر.. ونحن نُزيل التراب.. الكلاب تربض بالقرب منّا.. تتلفَّت بسبب كثرة الأنفاق (العَدامة).. كلما أخرج خالي جرذاً ذبحه.. وواصل الحفر.

استمرت تلك المذبحة وقتاً ليس بالقصير.. ثم أخذ يسلخها.. يُلقي بها فوق الجمر.. كان نصيب كلٍّ منا أكثر من جرَد.

(الجرَد) شديد الحذر.. أعداؤه لا حصر لهم.. ينظر في كل الاتجاهات خوفاً من القطط والكلاب والثعالب والشفْشة والذئاب والأفاعي.. ثم ينظر إلى السماء.. إلى الأعداء العلويين: البورقيص.. البومة.. الحدأة.. العقاب.. وام اشْمَيط.. فإذا أحسّ بشيء من الأمان غادر النفَق إلى أقرب رِمْثة ليقطف منها غصناً على عجل.. إذا لم يفعل نقذف له بحصاة صغيرة بيضاء فيتبعها.. تلك هي

اللحظة المناسبة لنسرع إلى سَد العَدامة.. ثم نشرع في مطاردته بعيداً عن مَلا ذه.. كان يُمتعني مُطارَداً أكثر مما يُمتعني فريسة.. أثناء المطر نحفر للسيل مجرىً تجاه النفَق.. ثم ننتظر مترصِّدين حتى يخرج مقروراً مرتعشاً.. غارقاً في الوحل.. يا الله.. أيّ كَمّ من الساديّة في نفوس الأطفال!

12

كنت أخاف الورَل.. يقولون بأنه يملك لسانين.. كنت أحاول تخيّل ذلك.. لماذا لا يكتفي بلسان واحد كسائر خلق الله؟ يقولون: لسان يرضع به الشاة.. ولسان يُصدر به صوتاً لترويضها (يقَرْوِط).. لكن ليس هذا هو الْمُخيف.. بل الْمُرعِب هو أنَّ الورَل إذا ضرب أحداً بذيله يسبب له العُقم.. يبقى عاقراً إلى الأبد.. هذا ما يقولونه.. لذلك كنّا نكتفي بمراقبته من بعيد.

13

في بعض الشتاءات.. ننتقل للسكن في الكهوف.. حتى الآن تتملَّكني الدهشة.. والفضول.. والرهبة أحياناً.. عندما أدخل

الكهوف.. والآبار التي يُعشِّش فيها (النِّيّسي).. تتدلى منها الخفافيش.. يزرع (السّلَّيو) على جدرانها أعشاشه الطينية.. يجذبني غموضها.. سحرها.. روائحها.. وحتى ساكنوها.

قُبيل المغرب.. كنا نلعب لعبة (حجَار الليل).. نأخذ حَجَراً من أحجار الوادي المتشابهة.. نسوِّد أحد وجهيه بالفحم.. نُغمض عيوننا.. يقوم أحدنا بقذف الحجر في العتمة.. ثم نبدأ البحث...

في إحدى المرات.. طوّح أحدُنا الحجرَ بعيداً.. بالقرب من فم الكهف.. فلم نستطع العثور عليه.. اقتربتُ.. عندما أشرفت على الفوهة المظلمة أحسست بريبة.. سمعت بعض الهمهمات.. رأيت أنواراً خافتة تتحرك داخل ظلام الكهف.

ذهبتُ مرة مع أختي لحشّ الجير من المجْيرة.. من أجل الخبيط.. المجْيرة كهف جيري.. محفورة جدرانه بالقادوم.. أحسست بنفس الريبة.. سمعت الهمهمات.. لكنَّ أختي ضحكت.. قالت:

ـ انت خوّاف.. ذَلاّل.. انت الراجل اللي مفروض يونِّسني!

14

في أحد الكهوف الكبيرة (كاف أم الرَجْلَين) كان هناك الكثير م ن البارود المخزون من مخلَّفات الحرب العالمية الثانية.. المئات من الظروف المملوءة بالبارود.. حبّات صغيرة مُجوّفة.. كان الرصاص منتزَعاً.. وبقي الظرف الفارغ (الفَيشُوك).. فأفرغْنا الحبّات.. أخذنا نَصُفُّها في خطوط طويلة.. ثم نُشعل في طرفها النار.. نتابع بدهشة رأس اللهب الأزرق وهو يجري.. لكنَّ ذلك لم يكن كافياً.. فأوقدْنا ناراً كبيرة.. وضعنا فيها بعض الظروف المملوءة.. اختبأنا خلف الصخور مستمتعين بصوت الانفجار.. والنار المتطايرة.. عندما أتذكَّر تلك اللحظة أتساءل: هل كلّ طفل يحمل في داخله مشروعَ إرهابي!

15

أُحبُّ القطط بشكل خاص.. أتعامل معها بحميمية كثيراً ما تجرّ عَليّ غضب أمّي.. أمّي لا تكره القطط.. لكنها تكره حميميتي الزائدة ـ من وجهة نظرها ـ في التعامل مع القطط.. حيث أسرق لها الحليب.. في الليل أفسح لها الْمَجال لتندسَّ معي تحت

الغطاء.. أغسلها.. أمَشّطها.. لا أمل اللعب معها.. من أشقّ اللحظات على نفسي لحظة توزيع القطاطيس الصغيرة على النجوع الْمُجاورة.. فلا يُسمَح لي سوى بالاحتفاظ بقطُّوس واحد مع أُمِّه.. كنتُ أتمنَّى ألاّ تكبر أبداً.. أبكي ضامًّا إياها إلى صدري.. مُتشبّثاً بها جميعاً.. فيطلبون مني اختيار أجملها.. يا له من خيار! كل واحد منها أجمل من الآخر.. روحي تتسرّب.. تتشظَّى خلف القُطَيطات المسافرة.

16

كنت كل عام أختار جَدْياً صغيراً.. وبالأصح عَناقاً.. لأن الذكَر مُعرّض للبيع أو الذبح.. أقوم بمعاملة العناق بكثير من الدلال.. هذا الدلال يعني حصة زائدة من الشعير.. والعشب.. حتى تبدو ممتلئة.. ذات شعر أملس.. يعني أيضاً مكاناً مُريحاً.. أكثر دفئاً.. أحياناً هي الأخرى تنام بالقرب من فراشي.

ذات مساء.. كنا نستعدّ للرحيل.. كانت الأغنام قد رحلت في اليوم السابق.. لم يَبْقَ سوى بعض الجديان.. جاءنا ضيف.. طلبوا مني أن أُحضر شيئاً من مكانٍ ما.. عندما عدتُ كان كل شيء قد

انقضى.. فعلوها.. أبْعَدوني.. لأنهم يدركون مدى تعلُّقي بالعَناق.. دفعتْ عناقي ثمن الدلال الْمُفرِط والسّمنة.. عندما رأيتُ الدم أحسستُ بالغثيان.. بدأتْ أحشائي تتحرك.. شعرتُ بضيق في الـ تنفس.. مادت الأرض.. ابتعدتُ مسرعاً.. فاضت دموعي.. لعنتُ كل شيء.. كل المقدَّسات.. أحسست كأنني أنا الذي ذُبِحت.. لعنت حتى أبي! بالطبع لم أستطع رؤيتهم وهم يلتهمون عَناقي.. ذلك جعلني دائماً أنظر إلى اللحم بشيء من الريبة.. ارتبط عندي الذَّبح بالخيانة.. كنت أمتنع فترات طويلة عن أكل اللحم.. حتى جاءت فترة امتنعتُ فيها عن أكل اللحوم نهائيّا.. بكل أنواعها.. كيف يُمكنني أن آكل كائناً أُحبّه ويُحبَّني؟! عندما آكل اللحم يتولَّد لدي إحساس بالخطيئة!

17

في إحدى العشيّات كنتُ سارحاً مع الجديان.. لم أبتعد عن البيت كثير اً.. فكانت الجديان تتفلَّت مني كل لحظة حتى تصل إلى البيت.. عندما عدتُ في المغرب.. قالت لي العجوز امباركة بنت حسين:

ـ تعال هنا يا سرافة.. هذي رَعوة؟ اقطع سروحك.. واكسر قحقوحك!

فضحكتُ.. سألتُ أُمِّي عن معنى القحقوح.. فقالت:

ـ القحقوح هو المسْلان!

فسألتها عن المسْلان:

ـ المسْلان هو خَرَز الظهر!

فسألتها عن الخرز:

ـ الخرز هو سلسول الظهر!

فسألتها عن السلسول.. فضاقت بأسئلتي.. وقالت بغضب:

ـ خَطانِي.. وانت تنشد ع الفول ومن زرعه.

حين حمل الرجال نعش امباركة ـ رحمها الله ـ قذفت النساء خلفها سبع حَصَيات صغيرة.. أمّا أنا فكنت أتمنّى أنها لم تذهب حتى تشفي غليلي في مسألة القحقوح.

18

ذات صباح ولدت الكلبة ستة جراء ملونة.. بياضها مُبَقَّع بالأحمر والأسود.. كانت تشمّها.. تلحسها.. تستلقي على جنب لتمنحها أثداءها الطافحة بالحليب.. لكن أبي انتزعها فجأة.. وضعها في كيس.. حمله على كتفه.. ابتعد.. تبعتْه الكلبة.. تدور حوله.. أحياناً تسبقه.. تتلفَّت.. ترفع رأسها نحو الكيس وهي تسمع عواء الجِراء.. واكبتْهم.. في عينيها نظرة توسّل.. لكن أبي لم يأبه لكل ذلك.. مضى حتى ألقى الكيس في بئر خَرِبة.. عميقة.. مُظلمة.. بقيت الكلبة أيّاماً تطوف حول البئر.. تُرابط.. تكتنز أطباؤها.. تتململ.. تضغط بطنها على الأرض.. ينزّ الحليب.. تمدَّ عنقها داخل الفوهة السوداء.. تُصيخ إلى عواء جرائها الذي يخفت رويداً في الأعماق السحيقة المظلمة.. تلك كانت المرة الثانية التي لعنتُ فيها أبي!

19

عندما أكلت كلا بتُنا (صَقْرة) سُمّاً.. قطعوا ذيلها فأخذت تنْزِف.. على الرغم من حزني إلا أنني تمنّيتُ أن تموت.. فالكلب بدون ذيل لا يبقى كلباً.. حتى ابتسامة الكلب في ذيله.. في المساء أقعتْ.. تمدَّدت.. اختلجت.. مدَّت أرجلها بارتعاش.. دارت عيناها في محجريهما.. صوّبت إلينا نظرةً أخيرة.. وماتت مفتوحة العينين.. ولَمّا كانت هي كلبة الأغنام.. فقد رأيتُ في عيني أُمِّي دموعاً.. فبالرغم من كل ويلات الحرب والمعتقلات لم تتشوّه أرواحهم.. فلا يزال في مقدورهم أن يبكوا حتى على الكلاب!

20

إحدى الأماسي الربيعية.. كنت أنا وشقيقي حسين مع الأغنام.. فجأة يقفز أرنب من أمام إحدى الشياه.. كان على مقربة من الكلاب.. لا شك أنه كان نائماً.. فالأرنب البَرّي.. على الرغم من حذره الشديد.. وذُعره من لا شيء.. إلا أنه ثقيل النوم.. كثيراً ما نُمسكه وهو نائم.. يفتح عينيه على آخرهما.. وقفْنا مشدوهَين.. ننتظر اللحظة الحاسمة في هذا الصراع غير المتكافئ.. الأرنب

يُحسّ بأنفاس الكلاب.. فينعطف انعطافة حادّة تُوْسِع المسافة بينه وبين مطارديه.. المسافة سرعان ما تضيق.. ما أسرع موت المسافات في رعب المطاردة! الأرض مكشوفة.. لا ملجأ.. لا ملاذ.. في لحظة خاطفة.. ينقضّ سهم أسود من السماء.. عُقاب يعقف جناحيه.. يخطف الأرنب من أمام الكلاب.. أصدر الأرنب صيحة مذعورة.. كصراخ الطفل.. توقفت الكلاب.. مَدَّت أعناقها إلى الأعلى بيأس.. فيما مضى العُقاب باتجاه قصر المستاشي.. القصر الروماني.. في ذلك المساء أحسستُ بالظلم.. والقهر.. وبالتشفِّي من الكلاب.. فالأرنب كان سيموت على كل حال.. لكنه حلَّق قبل أن يموت.. كان في ذلك بالنسبة لي نوعٌ من العزاء.

21

في الربيع نخشى على الخرفان الصغيرة من (العُقاب).. فهو أشد خطراً من الذئب والضبع.. فالذئاب والضباع غالباً ما تكون غزواتها ليليّة.. بإمكان الكلاب أن تتكفل بها.. أمّا العُقاب فهو ينقضُّ في وضح النهار.

عندما تستلقي الخرفان.. و(تغْدِن).. بعد أن ترتوي وتدوِّخها شمس الربيع.. ويحوم العُقاب في الأفق.. فإن النعجة بغريزة الأُم تُحس بالخطر.. فتقف فوق وليدها النائم.. لتدرأ عنه الموت المتربِّص في السماء.. لا تترك هذه المهمة أبداً للراعي.. ولا للكلاب.. أرفع رأسي إلى العُقاب بإعجاب مشوب بالخوف.. وأنا أتذكر كلماتهم:

العقاب يقول في صياحه ... البعد عن الناس راحة.

هل هي راحة للعُقاب.. أم للناس؟

22

لم يُؤذِّن (اعلَيْوَة) إلاّ في وقتٍ مُتأخِّرٍ جداً ذلك الصباح.. وهو أمرٌ غريب.. هل فَقَدَ صوته؟ هل اختلطت عليه الأمور.. حتى إنه لم يُمَيِّز الفجر؟ هل هو الضباب.. ذلك الليل الأبيض.. الذي جعل الأمر يلتبس عليه؟

لا هذا.. ولا ذاك.. لقد أرِقَ.. لم ينم إلاّ قُبَيل الفجر.. ومع أنه ليس من عادته أن يبقَى مُستيقظاً إلى ساعة مُتأخِّرة من الليل.. إلاّ

أنَّ لديه ما يُبَرِّر ذلك.. فقد بات وحيداً.. افتقد الأنيس.. ليس هناك ما هو أكثر إيلاماً ووحشة من افتقاد الأنيس.. ذلك أنَّ رفيقته التي تُؤنِس وحدته.. قد ماتت ضُحَى الأمس.. وبتعبيرٍ أدَقّ: سُرِقت.. اختفت.. تلاشت.. ومع أنَّ كلَّ أصابع الاتهام تُشير إلى الثعلب.. بسبب سوابقه في كل أنحاء الوادي.. إلاَّ أنَّ خديجة تُصِرّ على تبرئة ساحته.. تُوجِّه الاتهام إلى لصوص الأعالي.. تعني بذلك العُقاب والحَدَأة.. وهي تستند في ذلك إلى أنها لم تعثر على أيٍّ من القرائن الدالَّة.. لا رأس .. لا رِجل.. ولا حتى ريشة واحدة.. كما أنَّ لصوص الأعالي ـ على حَدِّ قولها ـ أكثر جُرأة.. يهبطون فجأةً من السماء.. يأخذون في وضح النهار.. أمّا الثعالب (المسكينة) فتتسلَّل ليلاً.. أو في غبش الفجر.

على كل حال.. مهما كان الفاعل.. فقد قُيِّدَت القضية ضد م جهول.. بغَضِّ النظر عمّا إذا كان ذلك المجهول من فوق أو من تحت.

ترَمَّل اعلَيْوَة.. بدأ يُحسّ برعب الوحدة.. صعد فوق الصخرة العالية.. أمام البيت.. اتَّجه ناحية الشرق.. مَدَّ قامته.. صفَّق

بجناحيه.. أخذ يبثُّ الشمسَ شكواه.. ترتَّب على خديجة أن تبحث عن عروسٍ جديدة.

الديك بالنسبة للعجوز خديجة.. المتوحِّدة.. التي تفتقد الأنيس.. لا زوج.. ولا ولد.. ليس مُجرّد ذلك المخلوق الملَوّن.. الذي يصيح مع كل إشراقة شمس.. لا.. إنه كالولد.. يُؤنِس الوحدة.. يُذْهِب الوحشة.. يملأ فراغها العاطفي.. تتحدَّث إليه.. تُناجيه.. تهمس في أُذنه.. تُدلِّله.. تغضب منه أحياناً.. تُناكده.. تُعاتبه.. تغفر له.. تحنو عليه.. تضحك له.. أو تضحك عليه.. يحلو لها في كثيرٍ من الأحيان أن تُمَسِّد ريشه.. وتغنِّي له.

هو أيضاً يُبادلها ذلك الحُبّ.. ففي الفجر يقول لها:

ـ صباح الخير.. نهارك سعيد.. تأخَّر الوقت.. أيش أخبار الفطور؟ فيش تفكري؟ تفكري في بيعي.. هَه؟

في المساء يقول لها:

ـ تصبحي على خير.. نوَعِّيك قبل الفجر والا بعده؟

في الأعياد يتمنّى لها طول العمر.. ودوام العافية.

نعم.. هكذا تنظر إليه.. هكذا تفهمه.. حتى إنها أعطتْه اسم (اعلَيوَة).. وهو اسم اشتُهِر به في كل الوادي.

عندما ضاعت الدجاجة.. جابت خديجة الوادي طولاً وعرضاً.. سافرت إلى النجوع المجاورة.. بالكاد عثرت على دجاجة.. فيها من المواصفات أكثر ممّا في بقرة بني إسرائيل.. كانت فعلاً تبحث عن عروس.

زفَّتْها إليه.. وقفت تتفرّج .. مُنتشية.. كما تفعل الأُمُّ يوم زفاف ولدها.. وكما تفعل الأُمُّ أيضاً.. أحسَّت بشيءٍ من الغيرة.. مَن يدري؟ لعلَّ العروس الجديدة تستحوذ على اهتمامه.

دار اعلَيْوَة دورةً كاملة حول عروسه.. باسِطاً جناحه الأيمن إلى الأسفل.. بينما كانت العروس تتمنَّع في دلالٍ وغنج.

خديجة تُحبّ تعليق الأشياء.. الغربال.. القفَّة.. الأواني.. الملابس.. كل شيء.. فأعمدة بيتها.. وحتى الأشجار القريبة.. زاخرة بالأشياء الْمُتدلِّية.. حتى إنَّ لديها معاليق لكل خيبات أملها..

كسوء الطالع.. الحظ العاثر.. البخت المائل.. العَيْن.. وغير ذلك من المشاجب التي لا تُحصَى.. لذلك فهي ترى نفسها امرأة سيئة الحظ.. راقدة ريح.. قليلة والِي.

هي امرأة في حالها.. ليس لديها فراغ على الرغم من توحّدها.. ففي بعض الأحيان تقْلِب أثاث البيت رأساً على عَقِب.. تبدأ في ترتيبه من جديد.. لا لشيء إلاّ لتجد لنفسها عملاً.. إنها امرأة لديها دائماً ما تفعله.. كانت تُردِّد: (الوليّة الْحرّة شغلها ما ينتهيش).

ذات ضُحى.. بينما كانت عائدةً من جيرانها.. شاهدت كُتلةً سوداء.. تهوي فجأةً من السماء.. تختفي بين الأشجار القريبة من البيت.

توقَّفت قليلاً.. قلقة.. حائرة.. ما هي إلاّ لحظات.. حتى برزت الكُتلة السوداء.. أخذت تصعد ببطء.. حتى اتَّضحت معالمها.

فزعت.. أسرعت الخُطَى.. بينما كان العُقاب يبسط جناحيه.. حامِلاً اعلَيْوة بين مخالبه.

وقفت مشلولة.. تنظر إلى العُقاب يُحلِّق بعيداً.. مُتَّجهاً صوب التلال البعيدة.. حتى توارَى في غبش الأفق.. وتوارَى معه اعلَيوَة إلى الأبد.. مُخلِّفاً على الأرض بعض الريشات الملوّنة.. هي كل ما بقِي في يد خديجة.. التي أحسَّت بأنها فَقَدَت شيئاً عزيزاً للمرّة الثانية.. وبرزت أمامها تلك الصورة من جديد.. يوم هبط الموت فجأةً من السماء.. واختطف ابنها (عَلِيّ).. كأنَّ ذلك لم يحدث إلاّ منذ لحظات.. فبعض الجِراح تظلُّ خضراءَ إلى الأبد.

أخذت تُقلِّب كفَّيها.. مُعلِّقةً ما حدث على حظِّها العاثر.. وتوحَّدها.. وقِزْمها.. وقِلَّة حيلتها.

... قُبَيل الفجر.. عندما كان القمر يتمسّح بالصنوبرات.. كانت خديجة تصعد مع السفح.. مُتَّجهةً نحو المقبرة القديمة.

في الصباح.. كانت تجثو على رُكبتيها.. مُطأطئة.. تناجي قبر ابنها عَلِيّ.. فيما الحلازين تتسلَّق شواهِد القبور.. باحثة في التجاويف عن ملاذ من صهد الشمس.

23

منطقة (الروَيْس).. الغابة كثيفة.. الشمس على وشك المغيب.. خرجتُ في أثر أختي نِيْسِيّة.. كانت (تحطِّب).. لم أكن أعرف مكانها على وجه الدقة.. الليل يهبط باكراً في الغابة.. تخرج الضباع بمجرد غياب الشمس.. يتجول الفهد في الجوار.. يوم كانت في الجبل الأخضر فهود.. تعوي الذئاب.. لم يعد يهمني أن أجد أختي.. المهم أن أجد أحداً ما.. أو أعرف طريق العودة إلى البيت.. لكنني تُهت.. توغلت في الغابة.. وفي الظلمة.. عثروا عليَ قبل انتصاف الليل.. أخبرتُهم بأنني رأيت كلباً أربد في الغابة.. نظروا إلى بعضهم بدهشة.. ضحكوا.. قالوا:

ـ انكتب لك عمر جديد!

24

... فُقِدت عَزيزة.. كانت تلعب مع الأطفال في رأس الوادي.. لم تعُد معهم.. وأم البنت تكاد تفقد عقلها.. تجري حافية نحو الوادي.. تصرخ: (عَزيييزة.. عَزيزاااااه).

لا شك أنَّ عزيزة لم تبتعد كثيراً.. هذه عادتها.. تُحِبُّ الْتقاط الأشياء الصغيرة كـ نَمْلَة.. تهيم على وجهها حتى تملأ حِجْرها.. ثُمَّ ترجع.. لكنَّ الشمس على وشك المغيب.

(رِيْم) تجري حافية.. أطراف الشال تتطاير إلى الخلف.. تنظر إلى قرص الشمس الأحمر يدنو من حافة الوادي.. قدماها تنزفان.. لم تكن ترى طريقها.. تدوس الأشواك.. الأعواد.. الأحجار.. تتعثَّر.. لكنَّها لا تُحَوِّل عينيها عن الشمس.

الظِّلال تمتد.. تطول بسرعة مُذهِلة.. مُخيفة.

تجري مسافةً ما.. تقف.. تُصيخ.. تلتقط الأصوات.

الغربان تعود إلى أوكارها في طَيَرانٍ مُتأنٍ.. الأرانب التي تجفل من ظلالها تظهر وتختفي.

انحدرتْ من أ على الوادي.. تُفتِّش الكهوف التي يطير من فوق حوافِّها النِّيْسي.. الخفافيش لاتزال مُتدلِّية.. لا شيء سوى رائحة العطن.

تبحث في فرَجات الصخور وتجاويفها.. تزحف على رُكبتيها تحت الأدغال الكثيفة.. تُشرِف على كل جُرْفٍ في مجرىَ السيل.. صعدت فوق الحافَّة لتستكشف الوادي.. هالَها أن يكون الوادي بكل هذا الامتداد.. وهذا العمق.. تطلَّعت إلى الأفق بفَزَع وهو يلتهم قرص الشمس.

عوَىَ ذئب في الحنايا البعيدة.. تغربلت.. قفزت من فوق الحافَّة.. اندفعت باتِّجاه العواء.. تصطدم بالصخور.. الجذوع.. الأغصان.. تُمَزِّق بيوتَ العناكب المنصوبة في الفجوات.. تَعلَّقَ شالُها بشجرة قَنْدُول.. جذبها الشال إلى الخلف بعنف.. اتَّقت الأشواك بكفَّيها.. حاولت تخليص رأسها.. غرز القَنْدُول أشواكه في طيَات الشال.. حلَّت العُقدة.. تحرّرت.. اندفعت من جديد ناحية العواء تاركةً شالها الأحمر للقَنْدول.

صرخ نوَيقِص:

ـ أوقْدوا نيران في أطراف الوادي.. امنعوا الضباع ولَذْياب.

بدأت الحنايا والحَوافّ تعجّ بالحركة.. تلألأت النيران.. أخذت هالةُ الأضواء شكلَ الوادي.. استطالتَه وتعرّجَه.

جلس بعض كبار السِّنّ حول إحدى النيران.. يتسقَّطون الأخبار.

العجوز ميمونة عجزت عن مواصلة البحث.. ضربتْ كَفًّا بكَفّ.. جلست إلى أقرب نار.

بدأت الحلقة تتَّسع.. كُلَّما مرّت عجوز تلهث.. ضربتْ كفًّا بكَفّ وجلستْ مع ميمونة.. تحت إغراء دفء النار والحديث:

ـ رِيْم راقدة رِيح.. إن كان ضاعت البنت.. يضيع صبرها كل ها السنين.

ـ فال الله ولا فالك.

نعبت بُومة.. فتلقَّت سيلاً من السِّباب واللعنات.. وحتى البصقات.

ـ ما نيش عارفة ليش رفضت صالح.. ما فيه ما يعِيْب.. أحسن واحد تقدَّم لها.

ـ ما فيه لا عيب إلاّ كونه أسمر.

شهقت ميمونة.. فاتحةً ذراعيها على اتّساعهما:

ـ وأي عيب في الراجل لَسْمر؟! الراجل لَسْمر كِيْ قَرْن الخَرْوب.. سمرة.. وخفَّة.. وحلاوة!

سألن أحد المارّة:

ـ بَشِّر.

ـ يجيب الله.

كان الحاج نوَيقِص مُتَّكئاً على مرفقه.. مُسنِداً وجهه براحته:

ـ حطُّوا حطب بَطُّوم عَ النار.. جمر البَطُّوم يمسك النار.

حرّك طاقِيّته إلى الخلف وإلى الأمام:

ـ رِيْم كيف المهرة.. بيضا.. طويلة.. ومَلْسا.. يَزْهَق مِن عليها البَرْغُوث!

ـ اسكت يا حاج نوَيقِص.. تقدر تحلف من غير ما تحنَث انّه جسَدها ما فيه عَظم.. وخصرها نَمّالِي.. تلمسه ينقطع.. وصَدرها تلعب عليه ستّة اسكمبيل.. والشّعَر خَرّوبي وطويل.. أطول من ليلة بلا عَشاء.. وخدودها تقول نار قايلة.. وعيونها أوْسَاع وسُود.. أسود من الليالي الاربعين.. يزرّنَّك عَ الكلبة الْمجَرّية.. إي والله.. وهدبها ـ علَيّ الطلاق بالثلاثة ـ كي حَسَك القمح.. يحقّها الذِّيْب يعَوّي!

... ويمضي الليل..

بُحَّت الأصوات.. خَبَت النيران.. مِن حينٍ إلى آخر يعوي ذئب.. أو تنعب بومة.

... مع تنفُّس الصبح.. سمعت رِيْم نداءَ من أسفل الوادي:

ـ ابشْري.. عزيزة بخير.

ركضتْ نحو مصدر النداء.. وقفتْ.. تشكَّكت..

تكرّر النداء.. بَدَّدَ الوهم:

ـ ابشْري.. عزيزة بخير.

ـ صالح؟!

خرج من بين الصخور الكبيرة التي تُضيِّق مَجرَى الوادي.. يحمل عزيزة.. تلفُّ ذراعيها حول عنقه.. بيده الأخرى يحمل الشال الأحمر.

أسرعتْ نحو ابنتها.. انتزعتْها.. احتضنتْها.. انهالت عليها بالقبلات.. على وجهها.. يديها.. قدميها.. في تلك اللحظة فقط تدفَّقت دموعها.. هناك مصائب أَجَلُّ من الدمع.. تُفاجئنا.. نُصاب بالذهول.. تنشلُّ أحاسيسنا.. فينْزَوي الدمع بعيداً يجري في الأعماق.. بدأت تُحسّ بالألم في كل جسدها.. لم تشعر إلاّ الآن بوخز الأشواك.. ثَمَّة أوقات يصمت فيها الجسد.. يغيب.. يرحل بآلامه وأوجاعه.. مُفسِحاً الطريق لآلامٍ أكبر.

انتبهت رِيْم.. كان صالح قد اختفَى.

... اتَّكأت الشمس على حافَّة الوادي الغاصّ بضباب الصباح.

عادت رِيْم إلى النجع.. في أثر صالح.. قلبَها مُفعَم بالفَرَح.. تارِكةً آلامَها في الوادي.. ومِن خلفها عزيزة.. تلتقط أشياءها الصغيرة.

25

يقولون عندنا: (في الشتاء كل شيء ينقص.. حتى الصخر.. ماعدا ثلاثة أشياء: البحر.. الجمَل.. ورماد النار).. فهي جميعاً تزيد.

حين تهيج الجِمال.. يتحتَّم على الرعاة أن يبتعدوا مسافة كافية.. أن يتجنبوا رَدّ الإبل.. أو ضرب الجمل الهائج.. فالجمل في تلك الفترة هو الراعي الفعلي.. فهو الذي يسوق الإبل.. تبقى مهمة الراعي مقتصرة على المراقبة من بعيد.. هذا (عَقْد) متعارف عليه بين الراعي والجمل الهائج.. إذا أخلَّ بهذا العقد فلا يلوم إلا نفسه.. ففي إحدى المرات.. لم يغفر الجمل للراعي الذي تطاول وضربه.. أخذ يتحيّن الفرصة حتى نام.. وبَرَك فوقه.

يدرك الجمل خطيئته.. فعندما (حاشت) الإبل.. بقي بعيداً.. لم يدخل المراح.. فأدركوا أنه قتل الراعي.

26

في المساء.. صرخ أحد الرعيان.. هبّ النجع لنجدته.. استلُّوا أعمدة البيت.. المقاديْم.. والخماميس.. لكنَّ الصراع هذه المرة كان بين ثلبين هائجين.. أحدهما يبرك فوق الآخر.. يصوك بأنيابه.. يقذف الزبَد.. يسحل غريمه تحت زَوره.

الضربات كلها تذهب سُدىً.. تكسرت بعض الأعمدة.. فصرخ أحدهم:

ـ حطُّوا راس الخمّاسة في منخره.

فجأة قفز الثلب كالملسوع.. فقد كانت تلك نقطة الضعف القاتلة في هذا الوحش الهائج.. ولكن.. إذا كان الصراع بين الجمل والراعي.. فهل بالإمكان استثمار هذه النقطة؟

27

كنت في أحد المساءات ألعب بالقرب من بيت عمتي أم الخير.. أقلِّب الحجارة.. فلدغتْني عقرب صفراء.

جرحوا إصبعي بشفرة.. أخذوا يمتصّون السّم.. لكنني لم أتألم كثيراً.. ذلك أنهم في النجع يحرقون عقرباً في الزيت المغلي.. ثم يُلحِسون ذلك الزيت للأطفال الرُّضَّع.. تضحك عمتي.. وهي تقول:

ـ ما تعطي بلاش غير العقرب!

في منتصف إحدى الليالي صرخت جارتنا عمتي فاطمة العَوّاميّة زوجة موسى بواللافي الحاسي طالِبةً من أُمِّي قَرْن الخرتيت.. فقد لدغتْها العقرب في ساقها.

قفزت أُمِّي إلى سَحّاريتها.. أخرجت قطعة من قَرْن الخرتيت.. أخذت تَبشُرها في قدح الحليب.. أسرعت إلى جارتها.. شربت الحليب.. ثم عادت لتنام من جديد.. كأن شيئاً لم يحدث.. كان ذلك الترياق يُشكِّل نوعاً من الأمان ضد الكَمّ الهائل من الأفاعي والعقارب والعناكب.. لعله أسرع إسعاف على الإطلاق.

28

تسقط إحدى أسناني في الليل.. أضعها تحت المخدَّة.. أتحسّسها بين الحين والحين.. في الغد.. أقايض شمس الضحى:

يا شمس يا شمّوسة..

يا عوينة العروسة..

خوذي سنّ غزال..

وعطيني سنّ حمار.

مُقايضة تعتمد على كرَم الشمس.. أكثر من اعتمادها على حُسْن البضاعة.

29

عندما أتعثَّر.. تضحك أُمّي وتقول: (أرْجا نَيْن يقطعوا قَيْدَك).. فكنتُ أتحرّق لقطع ذلك القيد الوهمي الذي يخنق خطواتي.. في إحدى العشيّات جاءت تلك اللحظة المنتظَرة: ألبسوني ثوباً جديداً.. أجلسوني في حِجْر أحدهم.. قدماي مقيدتان بخيط مغزول من الصوف.. بجانبي طبق من السّعَف مملوء بالحلوى والكاكاوية والقمح المحمّص (القليّة).. وقف شابّان من شباب النجع على رأس الربوة المقابلة.. ار تفعت اليد إيذاناً ببدء السباق..

انطلق المتسابقان.. تحفزهما الزغاريد.. ومحاولة انتزاع الإعجاب.. لم يكن الفوز مجرد فوز بقَطْع القَيْد.. أمّا أنا فحين أنزلوني.. وخلَّصوني من بقايا القَيْد المقطوع.. فقد أحسستُ بالانطلاق والْخفَّة.. وبأنَّ خطواتي أصبحت أكثر اتّساعاً.. لم أخشَ التعثر بعد ذلك أبداً.

30

البدو دائمو الاهتمام بالأهلَّة.. يحسبون بالتقويم العربي.. أحياناً يحسبون بالجُمَع أو بالأسواق الأسبوعية.. فيقولون عن شيء سابق: (له جمعتين.. أو ثلاث أسواق).

في آخر كل شهر يتردد السؤال المألوف:

ـ أيش مازال في الشهر؟

عندما يهلُّ الشهر.. يرفعون أيديهم إلى الهلال:

يا هلالاً هلَّيت..

بالْخير ادَّلَّيت..

وبالشَّرّ تعلَّيت..

يا هلال.. لا تفكّ علينا خْلال.

إذا كان الهلال واقفاً.. ابتهلوا: (يفكّنا الله م الحرب والكرب).

قُبيل الظهيرة تقول أُمِّي:

ـ عَدِّي الله يربّحك صَبَي في الشمس.

فأقف في الشمس متسائلاً.. تنظر إلى ظلي.. تقول:

ـ هذا وقت الظهر.

31

كنتُ دائماً أتشوّف إلى إيقاد النار بنفسي.. فكما يؤكِّد أطفال الْمُدن رجولتهم بتدخين السجائر مثلاً.. فإنَّ أطفال البدو يؤكِّدونها بأشياء أخرى.. كالمبيت مع الراعي في الخلاء.. أو الذهاب ليلاً

لإحضار شيء من بعيد.. يكون الأمر أكثر دلالةً وترسيخاً للرجولة إذا كان إحضار ذلك الشيء من الجبّانة.. أحياناً أخرى يتم التدليل على الرجولة بنوعٍ من استعراض الفحولة المزعومة.. فيتعرّون جميعاً.. ينظرون إلى عورات بعضهم ويقيسونها.. لكنَّ أحد الأمور الْمُهِمّة لإثبات النضج هو إيقاد النار.. فذات مرة تجرّأنا وسرقنا النار.. أعني سرقنا القَدّاحة.. ولما كانت هي القَدّاحة الوحيدة في النجع.. فإننا خشينا أن يُكتشَف الأمر بسرعة.. فجمعْنا كومة من الشّبْرق والحطب.. قمتُ أنا بإيقاد النار.. فقد كنتُ الْمُحرَض على السرقة.. لا تسأل عن الدهشة من رؤية ألْسنة اللهب وهي تصعد وتتلوَّى.. ولا عن صوت الشبرق المشتعِل.. في غمرة دهشتنا كدْنا نُسبَب حريقاً.. فقد كان ذلك في الحصيدة.. امتدَّت ألْسنة النار إلى القَشّ.. كان اللهب يجري مع (اقْشَيش الرَيْح) الذي يكاد يشتعل بنفسه تحت وهج الشمس.. من حسن حظِّنا ـ وبِما يُشبه المعجزة ـ اعترضت النارَ بعضُ الصخور.. فقمْنا بإطفائها بالأغصان.. بعضنا استعمل ثَوبه.. مما فضح العملية برَمّتها.. لكنَّ ذلك لم يَحُل دون تكرار ذلك عدَّة مرات.. حتى الآن لازلتُ أجد لذَّةً لا توصَف في مراقبة النار.. والإنصات إلى صوتها.

32

سنة 1963م سمعتهم يتحدثون عن زلزال المرج.. لم يسبق لي أن سمعت بهاتين الكلمتين.. فهمتُ أنّ الزلزال يعني أنَّ الأرض تهتز.. لم أستطع تصور ذلك.. فتطوّع أحدهم بعد أن أخذ هيأة العليم بالأمور وقَلَب شَفَته قائلاً:

ـ الزلزال يطَيِّح الحَواشِيْن!

لم يُخِفْني ذلك.. فليست لدينا حَواشيْن.

33

الحدَث الْمُهِمّ الآخر في ربيع سنة 1963م هو أنَّ وحدة إنجليزية أقامت مناورة بالقرب من (قلَيْعة نوّارَة).. وهو مرتفَع شبه هرمي.. يُطِلّ على آفاق منبسطة.. نحن نُسمِّي هذا النوع من المرتفعات (قارَة).

كنا نخاف الإنجليز.. نكتفي بمراقبتهم من بعيد.. نتعجّب من صعود عرباتهم فوق القارَة.. عندما تَمُرّ العربات بالقرب من

النجع.. نترك البيوت.. نسرع إلى الوادي.. نساءَ وأطفالاً.. نختبئ وسط أشجار الرّتَم.. غير أنَّ الإنجليز تجنّبوا الاختلاط بالناس.. حرصوا على إبقاء مسافة كبيرة بينهم وبين النجوع.. حتى كسبوا ثقتنا.. فبدأنا نقترب شيئاً فشيئاً.. شجّعَنا أبي.. الذي أكَّد لنا أنَّ الإنجليز لا يؤذون أحداً.. بل قد يقدِّمون لنا الهدايا.. يكفي فقط أن تقولوا لهم كلمة (بَقْشِيش).

هذا ما حدث...

مرّ رتل من العربات الصفراء.. اعترضْنا طريقهم صائحين: (بَقْشِيش.. بَقْشِيش). فقذف لنا سائق شاحنة علبة أسطوانية معدنية زرقاء لامعة.. حملناها مسرعين إلى البيت.. حذَّرتْنا أمّي من أنها قد تكون (بمبة).. فالنصارَى كفّار لا أمان لهم.. لكنَّ العلبة كانت مُغرية إلى درجةٍ لا تُقاوَم.. فتحناها.. كانت تلك (البمبة) مليئة بالشوكولاتة.. بطعم لا عهد لنا به.. منذ تلك اللحظة ـ وحتى الآن ـ اقترن الإنجليز في ذهني بالأشياء اللامعة الحلوة.. والأهم من ذلك هو كسر الخوف من (الآخر).

34

سنة 1963م.. (سنة الزلزال).. كان بيتنا في (وادي القلْتة) جنوب الجبل الأخضر.. ذهبت مع أمّي لمواساة جارتنا (غريبة).. كانت أمّها (سالمة) قد توفيت منذ أيام.. فوجدناها تبكي وهي تخيط الرقيع.. علقت تلك الصورة بذهني: (امرأة تبكي وهي ترصف الألوان).. أدركت بعد ذلك أنها كانت تقاوم الموت والفقد بالاشتغال على الجمال..!

35

كثيراً ما أطلب من أمّي أن تحدّثني عن المعتقَلات.. فتغمض عينيها وتهزّ رأسها:

ـ سريب طويل.. الله لا يعيده عَلَيّ مسلم.. كلينا الزنْباع والرَينش.. اصبح الواحد جلد عَلَيّ عظم.. كنا نلمّو بعَر البِل.. ناخذو حبّات الشعير المْصوصة اللي في البعر.. نحمّصوهن وناكلوهن.. اسنين جَوْع.. حتّى الذِّيْب في الوديان جاع!! في الْمَقْرَون كان عمري خَمسطاش والاّ ستطاشَر سنة.. لا أبّ لا أمّ.. بوي مات في الحرب..

أمّي ماتت ونا في ظهرها.. كنت نبكي علي سدَادة القدر.. قطعة عجينة سودا من الدخان.. كل صبح يوزّعوا علينا (الرَسَّيوني).. كل بيت قدح دقيق.. الشبردق فيه أربع أفواه.. كل فم تقابل فيه جبَانة.. الدفن ليل نهار.. اللي ما يموت من المشنقة.. يموت من الجوع.. حتى في الليل يدفنوا على ضَيّ الفنار.. وَيْنما يخَطِّم طَيّر حَمام نبقو نقولو:

يا طَيراً ما شي لجبَلْنا..

قُول لهَلْنا..

رانا في المَقْرون نزَلْنا.

يقولوا لنا الكبار: ماعد عندكم شِي هَل في الجبل.. هَلْكَم كلّهم في المقْرون.

36

... بيوت شَعْر مُتراصّة.. تمتدّ صفوفاً على مدى البصر..

بَنْدة.. مسَوّع.. شناوِير.. سَوط.. مشانق.. أسلاك شائكة.. تتخلَّلها عِدَّة أبواب.. كل باب يُفضي إلى مقبرة.. ذلك هو مُعتقَل المقْرَوْن.

... في الصباح.. كان أحد البَنْدة ينادي:

ـ رَسْيَوني.. رَسْيَوني.

ـ وين قدحك يا نوّارة؟

ـ رَسْيَوني.. رَسْيَوني.

ـ اليوم ثلاثة بَسّ.. مات العيَل؟

ـ مات.

ـ بكرة الرّسْيوني ينقص.

قالت نوّارة وهي تمدَّ له القَدَح:

ـ اليوم ثلاثة.. وبكرة اثنين.. وما ينتهي الشهر نين نريّحوكم من الرَسيوني.

ـ الجوع كافر.

ـ بلادنا مليانة كفّار!

ـ لو كان عمر المختار استسلم ريّحكم واستراح.

ـ صدقت.. وتَمّا كيفكم.. كلب يمذرح للنصارَى.

تشاغل بملء القدح.. ثُمّ قال بلهجة ودودة:

ـ لا تظلمينا.. ما فيه حد يريد الحرب.. حتى الطليان.. من يريد الموت بعيد عن وطنه؟! الحياة حلوة.. شُوفي روحك يا نوّارة.. ذابلة.. الحياة حلوة لو كانت تحت حافر حمار.

ـ حتى انت بعد طَلْيَنْت تعيش تحت حوافر الحمير.

ـ الله غالب.. هذا بسبب عمر المختار.. الواحد امّا يطَلْيِن والاّ يعيش في المعتقل.

قالت وهي تُمرَر أصابعها داخل الدقيق:

ـ البَرَكة فيكم.. عمر المختار ياكل الزنباع والرينش.. ونحنا في المقرون.. من اللي يعرف الطُرِق الخفيّة في الغابة وفي الصحرا.. من اللي يخبر الوديان والكُوف.. من اللي حرق الزرع والنواجع.. وسمّم لَبيار والعيون.. الشجرة ما يقطعها إلاّ فرع منها.. انتو اكثر طَلْيَنَة من الطليان!

ـ الله غالب.. لو كان عرفنا الحرب تنفع حاربْنا.

قالت وهي تُمسك بالقَدَح بين يديها.. وتضرب به الأرض ضرباتٍ خفيفة:

ـ غريبة.. إن كان الحرب ما تنفع.. يعني تحارب مع الطليان!؟ ليش ما هاجرت كيف الناس اللي هاجرت؟

عندما تكون في المعتقَل.. تتطلَّع إلى السماء.. تنتظر المعجزة.. فلا ترى سوى صفحة صامتة.. بَلْهاء.. فتُحسّ بأنَّ الله غير موجود.. أو أنَّه قد تخَلَّى عنك لسببٍ ما.. لكنَّك لا تملك بالرغم من ذلك إلاّ أن تنظر إلى فوق.. إلى السماء.. لأنَّه لم يَعُد هناك شيء تحت.. على

الأرض.. مَن يدري؟ لعلَّ الله يُطِلُّ من سماواته الزرقاء.. لعلَّ حبلاً يتدلَّى من السماء.. أو أيّ شيء تتعلَّق به.. وإلاّ فما الذي يمكن أن يحدث في تلك اللحظة؟ ما الذي يمكن أن يحدث وأنت تسمع خلفك فرقعة السوط؟ تلتفت إلى يمينك فترى أجساداً تتدلَّى من حبال المشانق.. الأسلاك الشائكة تنغرِز في صدرك.. والمدافن على مَرْمَى حَجَر.

تلك هي الأسئلة التي كانت تدور في ذهن نوّارة طيلة ذلك اليوم.. وهي تَرقُب السّحُب الشاردة تجوب الأُفق الأزرق.. حيث لا مُعتقَلات.. لا طليان.. لا بَنْدة.. ولا أسلاك شائكة في السماء.. تُدندن:

يا مزن يا عَونك اللي تجّارَى..

لا احْبِست لا دالَوا عَلَيك نصارَى.

... في الليل.. أشرق قمر المقْرُوْن بطيئاً.. باهتاً.. على صفوف من بيوت الشَّعْر الكابية.. وأعوادِ متصالبةِ شوهاء.. فوق منصَّةٍ عالية.. وأجساد تتأرجح في الفراغ.

أشرق أيضاً على نوّارة.. تقف في المقبرة.. وحيدة.. يلفُّها الخَواء.. يداها معفَّرتان بالطين.. كانت في الصباح تحتضن طفلين.

الْتفتتْ ناحية المعتقَل.. وهي تفكر في قرب المسافة بين الدنيا والآخرة.. دنيا المعتقل.. وآخرة المقابر الجماعية.. إنها بضع خطوات.. خطوات فقط.

37

حدَّثتْني أُمِّي أيضاً كيف كانت بعد يُتمها تعيش مع (اهْوَيّنة) زوجة عصمان الشامي في السّلُّوم.. فقد كانت تربطها بها صلة قرابة.. ثم بعد أسر عصمان من قِبَل الطليان.. ضمَنه الشارف الغرياني.. شفع له عند الطليان حتى لا يشنقوه.. أبقاه في منْزله في بنغازي.. عندما جاءت أُمِّي ـ وهي طفلة ـ من السَّلُّوم في بابور بحر مع اهْوَيّنة.. كان في استقبالهما في ميناء بنغازي الشارف الغرياني مع عصمان الشامي.. قالت: (كنت عَريانة وحَفيانة.. كَسّاني عصمان الشامي.. شرا لي رداء وثَوب).. بقيت فترة في بيت الشارف حتى عثرت عليها عمّتها رابحة بنت عبدالله في بنغازي.

حدّثْني أيضاً كيف كان الناس يُعَلِّمون أطفالهم القراءة والكتابة مستخدمين فحم التنّور أقلاماً! قبل أن تسمح لهم السلطات الإيطالية بالقراءة في مدرستها (السّكُولا).

تقول ضاحكة:

ـ وخَذْني بُوك في المقْرون.. نلقاها ما نريده.. زرّوني عليه بالغصب! ازْهدت فيه حَول كامل.. رَدّوني عليه مرّة اخرَى.. الله يرحمه علي كلّ حال!

38

حكَت لي عن رقيّة بنت زغَيّرِيت الخزعليّة التي قتل الطليان إخوتها.. فكانت تقول:

اللي طانيني هو مسعود..

اصغيَر ينشا في لَفْخار..

الاّ لْخْرين اجمال عَتل..

نباهم عند تروبينـار.

فترد عليها أخرى.. قُتل أبناؤها:

شِدِّي عزمك وابقي كيفي..

حتى نا متعاطب صَيْفي..

مكبورة نار علَي نار.

كل شيء في حياتنا ـ حتى البكاء ـ يخضع للإيقاع.

39

تقول (راد الله سالم): كنت صغيّرة في المقرون.. جيرانّا خذوا منّا المغرف.. قعدت نرجا.. نتمنى ترد المغرف وفيها جِرّة عيش.. قالت لي أمّي عَدّي جيبيها.. مشيت لهم.. ريت المغرف مازالت في الطنجرة.. فرحت.. قلت لهم عطوني المغرف.. الراجل لحس المغرف لحستين والاّ ثلاث قبل يمدّها لي! خذيت هذاك الليل ونا نبكي.. كنت جيعانة.. وجعتْني لحسة المغرف.

40

طائرتان إيطاليتان تحومان فوق الرحيل الْمُتَّجه جنوباً في منطقة (الحليقيمة).. هذا ما لا يملُّون روايته.. في المقدمة محمد الْهَنْكري.. يرتجز وهو يُصوِّب ناحية الطائرة:

حَوِّد يا طَيْر ... على ام الخيْر.

ومسعودة التي تفزع إلى الغنَّاوة في أحلك الظروف.. فتُحرِّض الرجال على القتال:

هذول هم اللي يا عين ... يحَاموك والنار والعة.

تقول أمّي:

ـ طيحوا الرجّالة طير.. اقْرنَوا فيه بالبنادق.. الطير لاخَر حام.. توطَّا.. ورَدّ علينا البِل.. طَيّح بمبة قتلت عمّك محمد عقيلة الْهَنْكري.. قسماته نصّين.. ردَّوا عليه في الليل ولَمّوه ودفنوه.

41

تقول في حكاية أخرى.. وهي تشير إلى أثر الشظية في رقبتها.. تحت الذقن مباشرة:

ـ طيّح الطير بمبة علَي نجعنا.. قتلت أمّي مبروكة القندوليّة.. صادتني منها شرَيكة في رقبتي.. ردَّت عليَ عَمّتك أم الخير.. ربطت راسي بالمحرمة.. وجلَينا.. ردَّوا الرجّالة على النجع.. لقيوا وليّة مقتولة.. راسّا مقطوع.. وعَيلها عَلَيّ صدرها.. ويرضع!

42

حدَّثني أبي عن (يوم العَقيْرة).. عَقيْرة (أمّ الشفاتيْر).. قال: كثروا علينا الطليان والمسوّع والشناوير والبَندة.. نمشو امقبَل ونسوقو في الرحلان.. المساق كمَن في العَقيْرة.. نحنا تَومَجْنا قبلهم.. الطليان سلاحهم ثقيل.. معاهم طيّارات.. والوطن بَرَ.. سفرتَح.. تغلّبوا علينا.. جفَلْنا.. وينما اقْرَيّب انْجَبّو ع الرحيل صرّخ (حسين الجويفي): (لا إله إلاّ الله.. وَين ماشيين.. قدّامكم صبايا وعيال..

مازالوا صغار.. الدَّور علينا نحنا في الموت).. اشربْنا لَرض وعَقَلْنا.. رَدَّينا الطليان.. واستشهد حسين الجويفي.

من تفاصيل تلك المعركة: حين اشتدّ قصف الطيران على الرحيل وسط العقيرة.. شردت الإبل.. لم تجد النساء والأطفال أين يلتجئون.. صرخ أحد المقاتلين المرافقين للرحيل بأن يأتوا بالناقة الصفراء.. بركّوها وسط العقيرة.. احتموا بها.. فكانت القنابل التي تسقط بالقرب من تلك الناقة لا تنفجر!

بعد زمن وقع أحد المحافظيّة في الأسر.. سِيْق إلى السجن في شحّات.. من خلال التحقيق معه اتَّضح أنّه كان مشاركاً في معركة (العَقِيْرة).. فقال له الضابط الْمُحقِّق باهتمام بالِغ: إذا أجبتني عن سؤال واحد أطلقْتُ سراحَك.. ما سِرّ الناقة التي كانت تَبرك في الوسط ويحتمي بها الناس.. بحيث لَم تنفجر عشرات القنابل التي أسقطناها؟ فقال المحافظي بكثيرٍ من الزَّهو: (كان عليها مصحف)!

43

حدَّثتْني أمِّي عن ابنَي عَمّها الشقيقين محمد وعمر (عَيْت التواتي).. حيث كانا يقْلِبان عَرَبة إيطالية فضربتهما عَرَبة أخرى

بالرشّاش (الماتريوز) فقتلتهما.. دفنوهما في قَبْرٍ واحد.. فبكت عليهما أمّهما (عازّة بنت طَه العَرِيفيّة) حولاً كاملاً.. حين مَرّ الرحيل بعد الحول بالقرب من المقبرة طلبت أُمّهما رؤية القَبْر.. فأخذت تبكي وتحفر تراب القَبْر حتى كشفت عن الجثتين.. وكانت المفاجأة.. حيث وجدتْهما كلحظة دفنهما.. لَم يتغَيّر جسداهما.. لَم يَمسّهما الدود.. فاقسمت ألاّ تبكي عليهما بعد ذلك أبداً.

44

وخالتي مسعودة بنت التّواتي التي عَرَض عليها (باريلا) الزواج.. فقالت: (والله ما تنكتب عليّ ناخذ طلياني عدو الله والوطن حتى لو مشطت الشَّيب).. فكان الجنود الطليان يربطونها تحت وهْج الشمس.. حتى حلول الليل.. لمدة شهرين كاملين.. وحين عَجز (باريلا) عن إخضاعها بعثها لمعتقل الْمَقْرون.. وفي المقرون قدّموا شكوى لضابط أعلى رتبة من باريلا.. فطلب عدم إجبارها على الزواج.

45

حكَى لي أبي عن بعض أحداث معركة العَلَمَين بين الحلفاء والمحور.. وهي معركة شارك فيها الليبيون بأعداد كبيرة.. أُسر بعضهم.. قضى أبي في الأسر عند الإنجليز ثلاث سنوات في سجن (أبوزعبل).. لكنَّ الأحداث الكثيرة التي سردها لم تُثِر اهتمامي.. حكاية واحدة علقت بذهني لطرافتها.. ودلالتها:

كان الجيش مؤلَّفاً من عدة دول.. هناك جنود من كل الألوان والأعراق والديانات.. كان هناك عدد من الجنود من شرق آسيا.. يقتنون فحل ماعز.. كانوا يعبدونه.. يغسلونه.. يُمشِّطونه.. يزينون قرنيه الطويلين.. كان أملس الشَّعر.. سميناً كأي إله.. كان الليبيون جياعاً.. والشهر رمضان.. فتواطؤا على سرقة التيس في آخر الليل.. لم يطلع الفجر إلاّ وهم يلتهمون (الإله) ضاحكين.. لا تسأل عن مذاق الآلهة.. ولا عن إجراءات التفتيش والتحقيقات في صباح اليوم التالي.. ولا عن جزع العُبَاد الذين تأخروا عن نجدة آلهتم.

بعد رحيل الألمان.. في انسحابهم الشهير من العَلَمين إلى تونس.. مروراً بليبيا.. كانوا يتركون وراءهم الكثير من آلياتهم.. قهرتها الصحراء.. قبل أن تعطبها الحرب.. نشف وقودها.. انثقبت إطاراتها بفعل الحصى الْمُدبّب.. والصخور الْمُسنَّنة.. أو كانت أبطأ من آليات الإنجليز الْمُطارِدة.. فتركوها.. لم يتسع لهم الوقت لتدميرها.

يَمُرّ رحيل البدو من أمام مراوَة.. يقفز أحدهم فوق درّاجة نارية ذات ثلاثة إطارات.. يحرك فيها شيئاً.. فتنطلق الآلة.. يمسك بالمقود بكل حرصه على الحياة.. تعلو صرخات النساء.. يُذهَل الرجال.. تنفر الإبل.. تجفل الحمير.. تختفي الآلة الجهنمية خلف المرتفَع.. يبدأ صوتها في التلاشي.. تعود مرةً أخرى.. يصرخون له بأن يقذف بنفسه.. لكنَّ الدرّاجة تسير بسرعة مخيفة.. فتختفي في الجهة الأخرى.. تظهر ثانية.. يتفتّق ذهن أحدهم عن حيلة.. فيصرخ:

ـ نزّلوا الرّواق.. نزّلوا الرّواق من فوق الناقة.

أنزَلوا الرَّواق.. فكوا طيّاته.. مدَّدوه.. نصبوه بينهم.. يصرخ صاحب الحيلة مرةً أخرى لقائد الدرّاجة.. الذي لم يكن يعرف أكثر من أن يُدير المقود.. فيتّجه ناحيتهم.. نطحت تلك الآلة الشيطانية الرَّواق.. انقلبت.. أطلقت أنيناً.. دارت عجلاتها قليلاً في الهواء.. ثم سكنت.

ـ مالَك ومال مخروبة النصارى.. اللي مَي فرس بوك توَقّعَك.

بعض الآليات.. كالدبابات والعربات.. كانت مادة جيدة لصناعة المزامير.. فعلى الرغم من كل القسوة التي يعيشها البدو.. فقد كانوا يجدون في أنفسهم القُدرة على أن يزمّروا فوق الخراب!

47

من أحداث معركة الرَّحيبة روت المرحومة (عيشة المَيّار البرعصي) أنها كانت تُحاول الهروب من أمام الجنود الطليان.. كانت حاملاً.. فاتتها النساء لوحدها.. فقالت إحداهن: (البرعصية اعْقبت).. فصادف ذلك مرور الفارس (سليمان لشلّ البرعصي).. فأخذته الحميّة فسأل: (وين البرعصية؟).. فاشارت إليها النساء

وهن من قبيلة العَبِيّد.. فعاد إلى (عيشة) أردفها خلفه على الحصان.. وأثناء جري الحصان سقط قناعها فالتفتت إلى الخلف.. فتفطّن لحركتها.. فطلبت منه أن يتخلى عن القناع فهو (خرقة) لا تستحق المخاطرة من أجلها.. خاصّة أن الرصاص كان أحياناً يتجاوزهم.. لكنّه أصرّ على العودة.. الْتقط القناع على رأس الحَرْبَة وقال: (والله ما العَبِيديّات يقولن البرعصية سيّبت قناعها!).

48

... صباحٌ خريفي بارد.. الضباب الراكد في قيعان الأودية يتسرب من فوق الحوافّ ويتلاشى.

الرّعاة خلف أغنامهم.. ينفثون البخار.. يدسّون أيديهم تحت آباطهم.

على جذوع الأشجار.. على الصخور.. وشواهد القبور.. تتسلَّق الحلازين تاركةً وراءها دروباً لامعة.

الغربان تنعب مُحلِّقةً في الأعالي.. حيث لا يطالها الضباب.

كلبٌ أبيض يرفع أنفه في الهواء.. باحثاً عن رائحة ما.

جَدْيٌ صغير تخلَّف عن القطيع.. يصيح في أثر كل من يَمرّ به.

سرّحت مَرْيَم بقرتها.. عادت تحمل فوق رأسها سَطْل الحليب.. تلتمس طريقها وسط الأحراش الكثيفة.

فجأة.. دَوّىَ انفجار هائل في السفح.. اندلق سطل الحليب.. ارتفعت سحابة من العجاج والدُّخان الأسود.. دوَّمت الغِربان.. ضجّ الوادي بالنَّعيب.

... دبّ الفزع.. اتَّجهت الأنظار والأقدام إلى الدَّخان.. عندما أشرفوا على الوادي توقَّفوا.. نظر بعضهم إلى بعض.. بدهشة وفرح.. فقد كانت مَرْيَم جالسة بالقرب من الفوهة السوداء التي خلَّفها الانفجار.. تنظر إلى أشلاء بقرتها.. إلى الرأس المقطوع.. والحجاب المتدلِّي بين القرنين.. وقد لطَّخه الدم والفَرث.

ـ الحمد لله على سلامتك.. البقرة معوّضة إن شاء الله.

ـ هذا ميراث الطليان.

ـ ويمكن يكون ميراث الألمان.. أو الإنجليز.

... صعد الثور من مجرى السيل.. يخور.. يتلفَّت.. اقترب.. وضع أنفه في الأرض.. يلهث.. يتشمّم.. أثارتْه رائحة الدماء.. أخذ يصيح صيحاتٍ حادَّة.. فاجعة.. متلاحقة.. لسانه يتدلَّى.. اللعاب يسيل خيوطاً من زوايا فمه.. يحرث الأرض بحافره الأيمن.. ينظر بِحيرة إلى أُنثاه.

تشمّم الرأس المقطوع.. حرّكه بأنفه.. لحسه.. بلَّله بلعابه.. وقع على ركبتيه.. أخذ يسحق الأرض بجبهته.. يحفر التراب بقرنيه الْمُدَبّبين.

تجمّعت كل الثيران والأبقار التي في الوادي.. أقامت مَناحة.. وهي تحفر الأرض بحوافرها.. وتخور.

كانوا يراقبونها بصمت.

الْتفتت مَرْيَم إلى رأس بقرتها المقطوع.. عادت تتأمّل العينين الواسعتين الجامدتين.. والحجاب الملطَّخ بالدم والفَرْث.

49

بعد المغرب نتحلَّق حول عمتي أم الخير.. تقصّ علينا خراريفها التي لا تنضب.. كانت تملك جِراباً من الأحاجي والحكايات.. أم بسيسى.. ذ قارش.. شمس طياح.. العويلة القزازين.. احْدَيدان.. ذبّاحة نويقة النبي السبعة.. والكثير الكثير من الحكايات عن الغُول والسلاطين.

ـ فيه هذاك السلطان.. وما سلطان غير الله.. واللي عليه ذنب يقول استغفر الله.

مع أننا أطفال.. إلا أنَّ عمتي تُصرّ على أن تسمع استغفارنا.. قبل أن تشرع في الحكاية.. كثيراً ما ننام على ركبتها.. قبل أن ينعق غراب نقارش ليلقي الخاتم فوق نجع أخيها الفارس: (غاق.. غاق.. ياغَوطاً فيك نقارِيْش.. ما م الوحشة والواحِيْش).. أكثر ما كان يُخيفني في خرّافة نقارش هو خاتمتها.. ذلك العِقاب البالغ حدَّ القسوة.. حيث تُربَط المرأة الخائنة بين ناقتين.. إحداهما جائعة.. والأخرى عطشَى.. يوضع على يمين الجائعة الشعير.. وعلى يسار

العطشَى الماء.. فتتحركان في عكس الاتجاه.. تشطران المرأة الخائنة بينهما!

أو حكاية الفَكْرَونة التي تُساعدهم في الحرث.. فلمّا انكسرت سكّة المحراث ذهبت لإحضار سكّة جديدة.. حين عادت عثرت في غمر.. فقالت: (هِدّ الحجلة.. ومَشي العجلة)!

في ليالي أم بسيسى ننصت بكل جوارحنا:

(يا بَيْت عطيني نار.. والنار للحَدّاد.. والحَدّاد يسنّ لي المناجل.. والمناجل للحَصّادة.. والحَصّادة يعطوني غمْر.. والغمْر للفرَس.. والفرس تعطيني سلاَ.. والسّلاَ للكلبة.. والكلبة تعطيني جرَيْو.. والجرَيْو للخَرّوبة.. والخَرّوبة تعطيني عصا.. والعصا لراعي الغلم.. وراعي الغلم يعطيني حوَيلي.. والحوَيلي للنَّجْع.. والنَّجع يعطيني زَغْراتات.. والزّغْراتات للوادي.. والوادي يعطيني سَيل.. والسّيل للسّدْرة.. والسّدْرة تعطيني نبَق.. والنّبَق للعَنْز.. والعَنْز تعطيني حليب.. والحليب لامّ بسيسى.. وامّ بسيسى تعطيني ذوَيلي نلعب عليه يوم العيد قدّام خَوالي).

وحكاية الغُول الذي يأتي كلَّ ليلة طلباً للعشاء.. مُهدِّداً متوعِّداً:

يا شايب يا عجوز..

يا بقيرةً قَنْدوز..

يا سبع معزَى سُود..

يا جحَيْشاً نَهّاق..

يا جرَيواً وَقْواق..

عطوني ما نتعشَّى الليلة..

والاّ هَمّ.. ناكلْكَمّ.

50

عمِّي عبدالرسول له حكاياته أيضاً التِي تَختلف عن حكايات أم الْخيْر.. كانت حكاياته عن البطولات والفروسية.. والهلالية.. مع

أنني كنتُ ـ ولازلت ـ أكره شخصية (أبو زيد الهلالي).. فأنا لا أحترم بطولته.. وهو بالنسبة لي مُجَرَّد قاطع طريق.. وقد قرأنا في التاريخ أنَّ الهلالية اشتُهِروا مع بني سُلَيم في نجد بقطع الطُّرُق على قوافل الحُجّاج.. بل كانوا من أوّل الْمُرتدِّين عن الإسلام.. حاربهم أبوبكر الصدِّيق.. فلا أدري ما هو الفتح أوالإنجاز الذي قدَّمه أبوزيد الهلالي؟ كان مُخرَباً (لو كان بوزيد صَلاّح صلّح سواني بلاده).. يبدو لي أنَّ المسألة تنطلق من العصبية والنرجسية العربية أكثر من أي شيء آخر.. فالهلالية عرب.. والزناتية بربر.. من هنا جاء الإعلاء من شأن (أبو زيد الهلالي).. مع العلم أنَّ البربر كانوا مسلمين قبل مجيء الهلالية سنة 442هـ/1050م.. ولنعد إلى عبدالرسول فأعجب حكاياته هي حكاية الذئب الذي ضحك على السبع في مسألة الحجّ.. حيث يدخل نفَقاً ضيّقاً ويخرج.. مُوهماً السبع بأنَّ هذا هو الحجّ.. يردد في طوافه:

حجّيت وجِيّت والسبع زطَل

حجّيت وجِيّت ربِّي يَقْبـل.

حتى يستطيع بدهائه توريط السبع في تلك الحفرة الضيّقة.. ثم يشرع في أكله من الخلف.. يُدْرِك الملك أنها النهاية.. فيلجأ هو الآخر إلى دهائه المكشوف.. قائلاً للذئب في مودَّة ظاهرة:

ـ يا وجُوه لَذْياب.. هَذي شحمة بين عيوني.

فيرد الذئب بسخرية:

ـ مانيش خبّاش لوجه الصاحب!

51

ذات مَرّة فتح عمّي عبدالرسول السّحّاريّة.. أخرجَ قطعة قماش بيضاء مَطويّة بعناية.. فكّ طيّاتها.. تفقَّدَها.. كانت ترقد في ثناياها زجاجة صغيرة.. قبل أن أسأله قال:

ـ هذا كفَن عَمّك.. معاه مويّة زَمْزَم.. الله يسقيك منها.. الله يحيينا ويميتنا علَيّ طاعته.

في تلك اللحظة بدا لي الموت مُخيفاً.. وفَكَّرت: هل علَيَّ أن أُجَهِّز كفني وزجاجتي أيضاً؟!

52

في إحدى المرّات ذهبتُ مع عمّي عبدالرسول إلى الغابة.. ليقتطع بعض الأدوات.. فكان يدور حول الشجرة متأمِّلاً.. ثُمّ يقول:

ـ هذا قادوم.

يدور حول شجرة أخرى:

ـ هذا منشاز.

يظل يدور حول الأشجار:

ـ هذي قصعة.. هذا محراث.. هذي مَيجنة.

كنت أستغرب كيف يرى تلك الأشياء في الأشجار؟!

53

في بعض الليالي لا تكون هناك خراريف.. بل أحاجي.. فننقسم إلى فريقين:

بنت الْمِيْر..

تخبّ حرير..

الساق إبرة..

والكم كبيّر.

إذا عجزنا.. طلبوا منّا بلاد.. ثم يأتي دورنا:

صَفّ ارْقود..

وصَفّ اقْعُود..

وصَفّ يعانِي في البارود.

طويلة وما تطول ذَيْل الحمار.

ترِد وما تَشْرَب.

شلْته في كمّي.. ملا دار بوي وامّي.

فرَس وحصان.. لَبّن لَوطان.

قد تتدخل العجوز أم الخير:

طَق طرَنقَش..

بوثَوب انقَش..

طَرّدنّه ما طَقَّنّه.

مشَيْت انْدِبّ..

انْرِيْد الدِّبّ..

الْقِيْت الدِّبّ..

راقِد في اللِّبّ..

ضرَبْت الدِّبّ..

وجِيْت انْدِبّ.

حَمْزة قمَز قَمْزة..

لحقَوه خَمْسة..

وجابَوه اثنَيْن.

أو تُصَعِّب الأمور:

عندي عَنْزاً حَرْتا بَرْتا.. صَمْعا كَرْتا..

جابَتْ تَوْم حِرْت وبِرْت.. وصمْع وكرْت..

جاهِن ذِيْب حَرَتْ وابْرَت.. واصْمَع واكْرَت..

كَلْ التَّوْم الْحِرْت الْبِرْت.. الصّمْع الكِرْت.

عندما نعجز.. نطلب حجّاوة أسهل.. فتلوِّح بيدها في لامبالاة:

تشرب بلا رقبة.

فنصرخ بصوتٍ واحد:

ـ العَجينة.

فتقول:

ـ هذي حجّاوة حتى النمل.. والبوبريص.. والقنافيد يعرفنها!

54

علاقتي مع أبي كانت محدودة.. أُمِّي كانت أكثر تأثيراً في حياتي.. أخذتُ من أبي هدوءَه وأنفه الأقْنى.. أخذتُ من أُمِّي إنجازَها للأمور قبل أوانها.. دون أن تترك أي شيء للصُّدْفة.. كان شِعارها: (الْمناياة قبل الْمطر.. والوقا قبل الدّبَر).

كانت تُنْجِز عدّة أعمال في وقتٍ واحد: الطنجرة على النار.. بَرّاد الشاي إلى جانب الطنجرة.. تَمدّ ساقها فوق (العَميتة) وتغزل.. تضع المغزل للحظة.. تُحرك الطنجرة.. تُؤجّج النار.. لا تنسى أثناء ذلك أن تُدندن بغنّاوة ما.. كُلُّ هذا واللُّوبان في فمها تتسلَّى به في فواصل الغنّاوة! أوقاتُها مضغوطة في وقتٍ واحد.

أُمِّي كانت تُشَكِّل لنا الدفء والظِّلّ.. فقد كانت تغزل الصُّوف وتنسجه بَيتاً يقينا البَرْد والرِّيْح والمطر ووهج الشمس.. لَم يُبالغوا حين قالوا: (الأُمّ هي الجانب المنظور من وجه الله)!

تضع أُمِّي برمة الفخّار على النار.. في حين أنَّ سنابل القمح لا تزال أغماراً في القَصْلَى.. فتأخذ غمراً.. تدقُّه بالعمود.. تذرِّيه.. تُلقمه الرَحى.. في تلك الأثناء تكون البرمة قد أخذت في الغليان.

كنت عندما أنظر إليها وهي تضع البقَّوشة على النار.. وأنا أُدرك أنَّ الغداء لايزال سنابل.. أتعجَّب.. كيف تتحول السنابل في لحظات إلى وجبة جاهزة؟! بعدها رأيت أيضاً كيف تتحوّل أكياس الدقيق إلى قمصان للأطفال.. يختال أحدنا بقميص أبيض مكتوب بين كتفيه: (دقيق أسترالِي)!

55

تبدأ الدجاجة في القوقأة بنبْرة معينة.. فتعرف أُمِّي أنَّ هذا أوان الترقيد.. لكنَّ دجاجتها تبيض بدون ديك.

ـ هذا دَحي ما ينفعش للترقيد.. دحي ريح.

تذهب إلى النجوع المجاورة.. لتستبدله بدحي الديك (بيض مُخَصّب).

ترقد الدجاجة على البيض.. ماعدا بيضةً واحدة.. تُفْرِزها.. تُبعدها عن دفء الريش.. سألتُ أُمِّي عن ذلك.. فقالت:

ـ هَذي زكاة.. حتى الدجاج يزكِّي!

... عندما تبيض الدجاجة.. تقوقئ قائلة:

ـ سْلمْت وجبت مجَوْهَرة.

فيغتال الديك فرحتها صائحاً:

ـ ياخذوها منّك الناس يا مقَوْهَرة!

56

ـ العشا الليلة خبزة احْجر.

كنت أُحبُّ هذا النوع من الخبز.

عندما تقرر أُمِّي ذلك.. نذهب إلى مجرى السَّيْل.. نجمع الحجارة الصوّان البيضاء الملساء.. نكوِمها داخل اللهب حتى تحمرّ..

نُسمِّيها (الرّضَف).. تطرحها أُمِّي.. تضع فوقها العجين.. تجفِّفه بلهب الشيح.. ثم تغطِّيه بالرماد الساخن والجمر.. فنُقرفِص بالقرب من الحفرة.. انتظاراً للخبز المقرمش.

إذا لم يكن لدينا تنُّور.. تحفر أُمِّي حفرةً أسطوانية مطابقة للتنور.. تطلب منّا أن نُحضر تراب أفعى.. وهو تراب ناعم كالدقيق.. فتعجنه.. تُسوِّي به الحفرة من الداخل.. تُسوِّيها براحتيها.. عندما تجفّ.. تُصبح تنوراً جاهزاً.. أتعجّب كيف يمكن أن يخرج هذا الخبز الأحمر الْمُقرمش من هذه الحفرة.

57

في صباحات الشتاء الباردة.. تُوقظنا أُمِّي من أجل أن (نلَقِّي) الجديان.. فنحمل الجديان إلى أمهاتها.. أسأل أُمِّي:

ـ ليش الجدي أبيض.. وامّه سَودا؟!

فتكتفي بالضحك.. وهي تحلب العَنْز.. ثم تأمرني:

ـ جِيب لي الْمَزْبلة.

أحـ ضرُ ماعون زبل الأغنام المعجون باللَّبَن الحامض.. فتضع أُمِّي قليلاً على ضروع الماعز.. حتى يمنع الجديان من الرضاعة.. مجرد لمسة خفيفة بالزبل على حلمة الثدي تكفي ليعافه الجدي.. حتى قالوا في المثل الشعبي: (فلان ما في راسه ما يزبِّل عَنْز) للدلالة على قلَّة الْهَمّ.

58

تزقزق قُبَّرة متوَّجة.. فتقول أُمِّي:

ـ خير يا طُوير؟!

أتساءل: ما الذي يعرفه الطير.. ما هي الأسرار التي تُخفيها القُبّرة؟

طائر القبّرة له قَداسة عندنا.. للاعتقاد بأنه كان يُعشِّش في مواطئ قدمي الرسول أثناء الهجرة.. (قنْبَيْرة في عِشّها.. طشّ من يطشّها).. فإذا عثرنا على عشِّه في الزرع.. نخشى أن تدوسه الأقدام.. فهو مُموّه بعناية.. فنحوطه بدائرة من الصخور.. أفراخه تفتح

مناقيرها لأقلّ حركة.. فهي جائعة على الدوام.. فكنّا إذا مررنا بها نصفر لها.. فتنبثق المناقير المفتوحة.. صاعدة إلى السماء بشكل جماعي.

59

في الصيف.. حينما تقوم أُمِّي بالتسدية.. تُعطيني كلُوْفة الغَزْل.. فأجري بها.. وألفّ حول العمود عائداً إليها.. فتقول:

ـ بالراحة الله يربّحك.. راك تقطع الغَزْل.. ربِّحْ ربايحك.. واسترْ فضايحك.

هل هي نبوءة بأنني سأقترف فضائح؟

60

على الرغم من أنَّ تأثيْر أبي في حياتي كانت محدوداً.. إلاّ أنَّني كنتُ أنظر إليه دائماً بنوع من العَطْف.. فقد كان طيّباً وبسيطاً إلى درجة لا تُصَدَّق.. ستُّون كيلو جراماً من البساطة! تلك البساطة كانت تستفزّني أحياناً.. يُصدِّق كلَّ ما يسمعه.. كلّ شيء عنده

(سبحان الله!).. أذكر مَرّة أنَّه كان يلعب (كارطة إسكمبيل) مع شقيقي حسين.. فكنت أقف خلفه.. أتجسّس على يده.. كل ورقة يحملها أُؤشِّر عليها لشقيقي.. ذات مرَّة حملتُ مرآةً صغيرة ووقفت خلفه.. عكست أوراقه في المرآة لشقيقي.. فكان (حسين) ينظر إلى الأعلى ثُمّ يُغمض عينيه مُوهماً أبي بالتفكير.. ويقول: (أنت يا بوعقيلة فيدك لَصّ دِيناري.. ورَيّ بسطون.. وأربعة سباطة).. فكان أبي يصفق يديه قائلاً: (سبحان الله! العَيل تقول يحِقّ فِيدي.. والاّ يَوحَى وَحي)! فرحم الله أبي.. كيف حارب الطليان.. ثُمّ في بَرّ الْحَبَش.. ثُمّ في العَلَمَيْن.. كيف عاش وسط الذِّئاب وهو مُثْقَل بكلّ هذه البساطة؟!

61

أم الخير بنت عقيلة من مواليد أواخر القرن التاسع عشر.. تزوجت سبعة رجال.. لم تمكث مع أحدهم أكثر من عام.. كانت أعرابية.. تجمع بين الجمال الفاتن والقسوة.. صعبة المراس كما نقول في لغتنا المنجَزة.. صوت جهوري.. يصدر من الأعماق.. تعطي الحروف كلَّ حقِّها في النطق.. تتلفَّظ بالكثير من الكلمات التي لا أسمعها من غيرها.. محطّ أنظار كل الرجال.. فارعة..

بيضاء.. تتمنَّع.. لا يملأ عينها أي رجل.. زَهّادة.. بل كانت تضرب أزواجها.. تثور على كل شيء.. تصرخ بقَرَف.. على الحرب.. والسّيل.. والبرد.. والجوع.. (وتقطيع الوجابي.. والمعيشة الغَبْرا الدَّبْرا):

ـ اسم الله علينا.. فضلة حرب.. اللي سيّبوها الطليان.. كَلْها البرغوث والقمل والصيبان.. النصارى أرحم من البرغوث.. هناك اللي راقد ريح من يوم يومه.

تُلوِّح بذراعيها إلى السماء:

ـ يا ربِّي فرَج علينا حتى بموت.

إذا وصلتْ إلى هذه الحالة.. فلا أحد يستطيع أن يُعلِّق.. أو يُعقِّب.. وإلاّ فإن ثورتها ستنصبّ عليه هو.

اختلفت مع زوجها (مفتاح الكشلافي) يوم الرحيل.. فنَزَعت من معصمها سوارها بوثُومة وقذفته به.. فتح السوار شقًّا فوق حاجبه.. اكتسى وجهه بالدم.. وتركته إلى الأبد.

ثارت في وجه زوجها (عوض العريفي).. فحاول تهديدها بعصا.. فَنَزَعت العَصا من يده وضربته بها.. وعندما ظلَّ هامداً دون حَراك.. أسرعت فَزِعَة إلى النَّجع وصرخت:

ـ قتلت عَوَض!

استطاعوا إسعاف عوض.. لكنَّها لَم ترجع إليه أبداً.

آخر أزواجها خالي (عبدالله يونس).. كان يُناكدها وهي تنسج.. فضربته فوق ظهره بالمنساج.. فسقط مغشيّاً عليه.. ثُمّ رمتْ له عدّة الحصان خارج البيت.. قالت له:

ـ اليوم اللي جيتك فيه.. ما كنت تكسب غير ها العدّة السودا.. البيت نا اللي بنيته.. يشيب الغراب.. وينبح الكلب عَ الحَشْر.. ولا درت مصلحة علي حالك.. يا قصير المروَّة.. مروّتك أقصر من قَيْد الحمار.. يا اللي ما تبول عَ الجرح.. نا معيشتي غَبْرا.. وانت راقد بين قرون العَنْز.

كانت جريئة.. خاصةً في لحظات غضبها.. عندما عاد خالي (عبدالله) من السّوق سألتْه:

ـ وَين الثَّوب اللي وصّيتَك عليه؟

تلكَّأ قليلاً ثم أجاب:

ـ ثيابك واجدة.. والثوب اللي عليك كويِّس.

فصرخت في وجهه:

ـ هذا تسمِّيه ثَوب؟

وشقَّت ثوبها إلى نصفين ابتداءَ من النَّحْر!

تُمارس سلطاتها ا الْمُطلَقة على النجع كله.. فلا أحد يجرؤ على رفض شيء تريده بنت عقيلة.

ـ تعال هَنا يا ولَيِّد.. شعَرك واجِد.

تأخذ الجلم.. تبدأ في حلاقة شقيقي حسين كيفما اتفق.. المهم أن تُزيل الشَّعْر.. يقضم رأس الجلم أُذن حسين.. يصرخ.

ـ اسكت يا فرخ الحرام.. بلا فَقْفقة.

ذات شتاء.. (سنة الزلزال).. جاء جمل هائج إلى النَّجع.. لَم يكن الرجال موجودين.. فَزِعت النساء والأطفال.. صرخت أم الخير آمرةً أن يدخلوا البيوت.. فالجمل الهائج لا يدخل البيت.. أنزلَت بندقيّة زوجها المعلَّقة في حجْنة الجابر.. وضعت فيها ست رصاصات (تستة).. تَومَجت في فَم البيت مُصوِّبة إلى الجمل.. تلَفَّت الجَمل كثيراً.. وهو يقذف الزَّبَد و(يهَدِّر).. ثُمّ مضى لاحقاً بالإبل.. وكفى الله أم الخير القتال!

قال أحدهم ذات يوم ساخراً: (اللي يريد ثار مِن عَيْت يوسف يقتل أم الخير)!

بالرغم من كل هذه القسوة الظاهرة.. فهي تملك كَمًّا من الحنان يتَّسع لكل شيء.. تبكي لأقل سبب.. تضمّنا داخل ردائها المثقَّل.. أو فوطتها الحمراء بوخَمْسة واثنين.. تحتضننا.. تُقبِّلنا..

ـ تعال يا طوَيري.. تعال في كتْري.

كانت تُصغِّر الأشياء: (اسْمَيْنة.. ازْبَيْدة.. اشْكيْوَة.. احْلَيْبة.. برَيْرِيْد.. اطْوَيْسة.. ارْزَيْزة.. اخبَيْزة.. اعْنَيق.. احْوَيْلي.. احْمَيْر..

اقْعَيَد).. بل كانت في دعائها تقول: (يا ارْبَيِبِي).. رغم أنوف الفُقهاء الذين يقولون بأنّ الرّبّ لا يجوز تصغيره.

كنّا نلمس نقوش عقدها (الحوافِر).. رسومه أشبه بحوافر الخيل.. أو حدوة الحصان.. تشرع في خراريفها.. تجد لكل شيء.. ولكل مناسبة حكاية.. كثيراً ما تردِّد: (نا كبيرة.. حاضرة جهير البحر).. لحظة تشرع في حكاياتها.. فكما تفتح صندوقاً مُغلَقاً على آلاف الأشياء الحبيسة.. آلاف الأشياء الملونة المبهِرة.. الملضومة في خيط شفّاف.. تستلُّ طرف الخيط الخفيّ.. تبدأ الألوان في التدحرج.. كل حَكايا أم الخير مُلَوّنة.. حتى إننا نشمّ الألوان.. نتحسّسها بأطراف أصابعنا.. نتذوّقها بألسنتنا! كل شيء في حكايات عمتي أعجب مما قبله.. يبدو خيطها غير المرئي لا نهاية له.

62

جارتنا سعْدَى كثيرة الخوف من العَين.. فتلقي بالفاسوخ والجاوي والوشَق في الكانون.. وتردِّد.. تحت سُحب الدخان:

يا فاكّو فاسوخ.. السّوّ يفوخ..

يا جاوي.. فكّنا من كبار الدعاوي..

وشَق في عين اللي شهَق.

ثم تأخذ حَصْوة الشَّبّة.. تُديرها حول رأس الطفل (حسن).. سبع بَرْمات على اليمين.. وسبع بَرْمات على اليسار.. وهي تتمتم:

شايب وعجوز يحرثوا في الملح..

والملح مانبت..

والعين في احْسونة ما نبتَت.

تلقي بالشَّبّة في الجمر.. فتسيح.. تبدأ في التهدج.. تأخذ شكلاً ما.. فتبدأ محاولة التعرف على ذلك الشكل (المعيان): راجل.. وليّة.. طويل.. يشبه فلان.. تستور!

بعد أن تُنهي تعويذتها.. تنتقل إلى الترجيب.. يشرع (حسن) في الضحك على إيقاع الترقيص:

غَيْر اكْبَر بَسّ..

غَيّر اكْبَر بَسّ..

انْجيبو لك عِدّة وفرسّ.

***

طَيّب ارْطَيب.. طَيّب ارْطُوبَة..

يَكْبَر يركب عَ الْمَيْدوبَة..

يفزع ويفكّ المنهوبة

يصَيّد ويجيب جلُوبَة..

شيّالاته عشر اثلوبة

وابله ترد علي مرتوبة

والعَبْد يهَجّر مَركوبَه..

والخادم تغسل له ثَوبَه..

طَيّب ارْطَيَب.. طَيّب ارْطُوبَة.

***

طَيّب أرطوبة طَيّب أرطيّب

كل شهر ياخذ ويسيّب

نين يجيب الوجه الطيّب

على إيقاع الترقيص أيضاً تتطاير الخمَيسة.. والقرَين.. وسلحفاة صغيرة.. تتدلَّى فوق صدر الطفل.. ثم ترفعه بين يديها.. تشمّ عورته.. تقبّلها بصخب.

عندما سمعتُها ذات يوم تدعو على أحد أولادها: طَيَحْ نَجْمَك.. سألتها عن معنى ذلك.. فقالت:

ـ كل واحد يطلع له نجم في السما يوم ميلاده.. ويطيح يوم موته.

فكنتُ دائماً أُقَلِّب وجهي في سماء الليل متسائلاً عن نجمتي.. وأفزع من الشُهُب التي تشطر الظلام في لحظاتٍ خاطِفة..

وأتعجَّب: كم من الناس تسقط نجومهم كل ليلة.. وكم هو مُرعِب أن تكون حياتنا مُعلَّقةً بنجمٍ سابح.

63

جارتنا فاطمة أيضاً لا تَمَلُّ ترقيص ابنتها:

مِن مَرْيوط وسِرْت وغادي..

بانَن فِيك عيون عَوادي..

حِبْر عَلَيْ كاغِط منكَبّ.

قد يحمل الترجيب الكثير من الأماني:

من انظرك يا من راعاك..

وعيالك سربوط وراك..

من انظرك وانتِي متْشبّة..

في جِرّبي مانك في جبّة..

وإن درتي للعفِن محَبّة..

تنقتلي ويهون غلاك.

64

جارتنا العجوز حين تغضب تدعو عليّ بالقافية:

حطّك في وادي ... واذيابه عوادي.

انزل من عالحمار ... عطك طحمار.

ومع أنني لا أعرف ما هو (الطحمار).. لكن من الواضح أنه شيء سيئ.

عطك داهية .. والعرب ساهية.
وعلى الرغم من ذلك كانت ودودة.. حنونة.. حين تقوم بعمل خبز (المجردقة) تدعوني لآخذ منها.. حين تحلب شاتها تدعوني لأشرب الرغوة.. وحين أبالغ في اقتفاء أثر الرغوة تقول لي:

خلاص.. حيّد: حيدك م السوحة ... وحطّك في مندوحة!

كان سجعها يعجبني.. كان دعاؤها عليّ ــ رحمها الله ــ من وراء القلب.

65

عند المغرب.. تأتي غزالة بنت معَزِّب.. صاحبة أكبر قطيع ماعز في النجع.. تطلب من أُمِّي أن توقظني في الصباح الباكر.. فغداً هو موعد ظمي المعيز.

تضع غزالة الحبل الخشن (الرِّشا) حول خصري.. تُدلِّيني في البئر.. الذي يبلغ طوله سبع قامات.. رائحة الرطوبة والصخور الْمُندّاة تمنحني نشوة.. وأنا أتأرجح وألْمس بأطراف أصابعي الجدران المقوَّسة.. تلسعني برودة مياه العِدّ.. تلك العين السحيقة (عين صِيْرة).. التي لا ندري من أي الأعماق تنبع.. أُردِّد الكلمة المتعارف عليها إيذاناً بامتلاء الدلو الأسود:

- راح.

تنتشل غزالة الدلو.. وهي ترتجز:

لا جاك جراح ... من قَولة راح.

تُغرقني الدلو وهي تصطدم بالجدران.. و(تلطلط).. لم يكن يخفِّف من برد الماء وعتمة البئر سوى إيقاعات غزالة:

أوَّلْهِن تاق ... معَ الْمطْلاق.

اسم الله فيْه ... قَبْل اتذُوقِيْه.

بارَك لِك فِيْه ... الله ونبِيْه.

بعد أن يرتوي المعيز.. تُخرجني بالحبل.. مواصلة إيقاعاتها:

يا قادِر ... هَيْت الحادِر.

نَجِّيك لْها ... يا حادِرها.

فاستمتع بدفء الشمس.. حتى تفرغ الحيضان.. فُتدلِّيني مرة ثا نية إلى صقيع الماء.. حتى سكن البَرْد عظامي إلى اليوم.. فرحم الله غزالة.

66

... العجوز خديجة بنت مهَدي الجويفيَة التي كانت تبْرم الغزْل.. فتمد ساقها.. تُعرَي وركها.. تضع الخاتم في الإصبع الوسطى ليدها اليُمنى.. من أجل أن يُحدث إيقاعاً في احتكاكه بعصا الْمَبْرَم (الطرْب).. فأجثو بالقرب منها.. أتأمل الْمَبْرَم في دَوَرانه ورَقْصه بين كَفِّها وورْكها.

67

... جارتنا زينب كانت تأسرني عندما تلبس العَبْرَوْق.. لا أعتقد أنني كنت أنظر إليها بدافع الشهوة.. فقد كنت طفلاً.. لكنَّ بياض

وجهها تحت طيّات العَبْرَ وْق الْمُلَوَّن يسحرني.. فأطيل النظر إليها.. ثم اكتشفتُ أنَّ بياض وجهها لم يكن يسحرني وحدي!

68

... مَرْيَم التي كانت تُحرك البرمة بالمغرف.. وهي مُستغرِقة في الإنصات إلى (طرْقي) يَمرّ بالقرب من النَّجع.. يرفع عقيرته بالغناء تحت ستار الليل:

تناير سداه وباد ... وفات لَجْل يا عَيْن عَ الغلا.

تنظر النساء إليها.. يتغامزن ضاحكات.. فقد كانت تُحرك في الفراغ!

69

... سليمان الذي كان يُراود إحداهن وهي تمخض.. فأخذ يشكو من حرقانٍ في عينه.. يطلب منها أن يشم عقْدها المصنوع من الحلْبة (الشحّاطَة)... فأنزلت الشَّكْوة.. أخذت تفكُّ العقد قائلة:

ـ الحلْبة دواء للعين.

فدنا منها.. وضع أنفه في رقبتها.. قال:

ـ خلِّيني نشمّ العِقد في رقبتك!

70

... رِيْم التي عندما تقف تندلق ضفائرها إلى ركبتيها.. فتضع طيّات سوالفها في شِمْلتها.. فكانوا يترصَّدون وقوفَها.

71

... رقيّة التي تقف على الطريق العام في (الصلبيّة) انتظاراً لمواكب الذاهبين إلى الصّوت في الزاوية البيضاء.. صوت بوعرقوب وبوالفرجاني.. فتزغرد للمساعيد.. وترفع في وجوه (عيت حسين) طنجرة سوداء! لم نكن نعرف تفاصيل القبيلة.. فكّنا نعرف هذا من ذاك من خلال الزغرودة والطنجرة!

72

... ذات مساء.. سنة 1963م.. وكان بيتنا قرب الطريق العام في منطقة الصلبيّة.. مرّ على البيوت رجل مسرع على دراجة نارية (ترافكو).. أبلغهم أن الملك (سيدي إدريس) سيمر مساء الغد من هذا الطريق.. مرور الملك كان يشكّل بهجة.. حين اقترب الموعد أخرجت النساء الهدَم المزخرفة والكليم والحوايا .. نشرنها في الخارج ليراها الملك.. اصطف الرجال على حافة الطريق.. جاء موكب جلالته.. دراجتان ناريتان في المقدمة.. سيارة مرسيدس.. سيارة إسعاف في الخلف.. كان الموكب يسير ببطء.. استقبله الرجال بالتصفيق.. والنساء في الخلف بالزغاريد.. أومأ الملك بيده دون أن يتوقف.. لم أستطع تبيّن ملامحه.. رغم تطاولي على مشطي قدمي الحافيتين!

73

... حَنِّي ربْح الدرسيَة.. التي تستمدّ سُلطاتها في النجع من مكانة جدّي عبدالله.. حين يذهب جدّي على حصانه الأحمر

للتسوق.. تشعر بأنّ سُلطاتها تقلّصت.. وهي (وليّة برّانيّة).. فتشير بإصبعها إلى الجهة التي يأتي منها جدّي.. وتقول:

السّا ايْجي راع الحمَر ... وتبقَى ربْح هي شيخة الدّبَش.

74

عمّتي رابحة بنت عبدالله (عمّة أمّي) كانت تُجيد لعب الكارطة.. تعلّمتْ ذلك في المقرون.. تعرف الأوراق المهمة (الكَوْز).. ما وقع وما لم يقع.. لكنّها لا تعرف كيف تحسب.. فحين ألعب معها الكارطة تقول لي: (موكّلة عليك الله في الحساب)!

75

كنتُ وحدي في القيلولة.. ألعب خلف النَّجع.. السراب يتراقص متموّجاً.. أشرفتُ فوق صخرة كبيرة.. وجدتُ في ظلها رجلاً وامرأة مُتلبَسين...

لم يأبَه لوجودي.. أمّا هي فعضَّت على شفتها ونهرتْني:

ـ عَيب!

في تلك اللحظة أحسستُ برغبة في التقيّؤ.

76

كان عائداً إلى بيته.. مُتعَباً بعض الشيء.. قلبه مُفعَمٌ بالشوق إلى زوجته.. إلى طعامها.. وشوشاتها.. وحتى مُناكداتها.

كان يُدندِن بغنّاوة ما..

سمع خشخشة داخل شُجَيرات البَطُّوم..

أنصَت..

ـ ثعلب.. والاّ أرنب؟

اقتربَ بحذَر..

ـ ذيب؟

اقترَبَ أكثر.. رآهما.. مُلتصقين.. كأنَّهما جسد واحد.. لم يتمكَّن من رؤية وجهيهما.. لكنَّه رأى حذاءها.. حذاءها الأسود الْمُخَطَّط.

تعوّذ.. ابتعد مُسرعاً.

دخل.. وجدها تغزل.. تَهلَّل وجهه.. رأى الحذاء الأسود الْمُخطَّط.

ـ سبحان الله.. مَرّيت علَيّ اثنين في وضع غريب.. والغريب أكثر أنّ الولية كانت تلبس نفس كندرتك الْمْخَطّطة!

شهقت الزوجة.. فاتحةً ذراعيها على اتساعهما:

ـ يا راجل مَا تستحي.. تشوف الحرام بعينك.. وتجي تحكي لي عنّه.. واللهِ ما تقرب منِّي.. ولا تذوق من اِيْدي طعام قبل ما تغسل.

صعد الدم إلى وجهه.. أغضَى.. وخرج مُستغفِراً ليغتسل!

في الحصيدة.. يوقظنا عمّي عبدالرسول من الليل:

ـ نوضوا يا عيال.. القايلة قيّلت.. الشمس في كبد السما.

نقلع أنفسنا من الفراش.. فلا نجد في كبد السماء سوى نجمة الفجر!

كُنّا نحصد الشعير بأيدينا.. وبالمناجل.. وذلك العجوز المقوس الظهر ينحني خلفنا.. يلتقط كل سنبلة تسقط منا.. موجّهاً لنا اللوم:

ـ نزعتوا بركَة الزرع.

ثم يرفع رأسه.. ويقول:

ـ الرسول ع ليه الصلاة والسلام.. دعا عَلَيّ صَيّد الليل.. ونزع منه البَرَكة.. قال:

اَجْعَل وكالَك جهِيْر ... ووْسادَك حَفِيْر.

لكن بارك السِّدْرة.. قال:

اَجْعِلك في الصيف خَضْرا ... وفي الربيع مَذرَىَ.

ودعا للذيب.. قال:

اَجْعَل كلّ سَبْعة ... لك منهن شَبْعة.

ودعا عَ النّسا.. قال:

اَجْعَل زَيْنتْكَن عند عَطِيْبكَن..

واَجْعَل عَطِيبتْكَن عند زَيْنْكَن.

وتصوَّرتُ أنَّ رسول الله ـ حاشاه ـ لَم يكن له شاغِل سوى الدعاء على هذا.. أو الدعاء لذاك.

... يَمُرّ أحدهم.. فيصرخ من بعيد.. ملوِّحاً بيده:

ـ الله يساعد.. الله يساعد.

فَيَردّ عليه عبدالرسول بصرخة مماثلة:

ـ يا الله.. عَلَيّ طاعة الله.

ـ ان شاء الله صابَة.

ـ بجاه النبي واصحابَه.

كُنَّا نحبّ مداعباته.. ومشاكساته الحنونة.. وهو يطلب منا ألاّ نحصد صامتين.. بل علينا أن نرتجز.. وغالباً ما يبدأ هو.. ونحن نردِّد خلفه:

يا زَرْع انْجل ... جاك المنجل.

تَمَّت تلْتَفّ ... مِن ضَرْب الكَفّ.

اقْعِد يا غِمْر ... هَنا وانْطمر.

جابَوها جَيْب ... اقْلال العَيْب.

سَلم ارْجالِك ... فَضَّوا بالِك.

إذا أراد تحريضَنا قال:

زَرْع البِيّار ... ابقي لِي عار.

إذا تأخر أحدنا قليلاً.. صرخ العجوز:

اقعد يا ذَيل ... عشاء للخيل.

لا أحد منّا يرضى أن يُنعَت بأنَّه ذَيل.. فنحصد.. ونحصد.. في القيظ الشديد.. تمتلئ أكفُّنا الطفوليّة بالأشواك.. نحسّ بأننا نغادر طفولتنا قبل الأوان.

في إحدى ا لعَشِيّات ـ وقد شعرنا بالملَل ـ كنّا نحصد ببطء.. فقال أبي:

ـ احصدوا كوَيِّس تَوّا نحكي لكم عَ الهلاليَة.

ما يُمتعني في تغريبة الهلاليّة هو الشِّعْر فقط.. وأحسستُ بأن هناك فجوات في حكاية أبي.. فنَبّهْته إلى ذلك.. فراوَغَ مُتحجّجاً بأنَّ الحكاية طويلة.. لكنّ الأمر لم يكن كذلك.. فقد تجاوز بعض الأحداث عن قصد.. كعلاقة يونس بالسفيرة عزيزة.. إذا أردتَ الاستمتاع بحكايةٍ ما.. فلا تسمعها من أبيك!

أثناء درس الحبوب على (القاعة) يرتفع صوت جدِّي دربال:

أوَّل ما تبادَيْنا ... عَلَيْ محمَّد صَلَّيْنا.

حَيْل ادْراسه ... عَ الْحَبّاسة.

يا حَمْرا راه ... يَوْم امْجاراة.

خَلِّيه حَساء ... جِيْرِك م الدّاء.

عَمّي عبدالرسول يذَرِّي.. التّبْن يذهب مع الرِيْح.. القمح يسّاقَط فوق العرْمَة.. ويَسِيْل.. وأنا بالفرّاحة أزيل القِرْفة.. أدرك أنَّ انتهاء موسم الحصاد يتيح لنا فرصة اللعب.. والبحث عن أعشاش العصافير قبل أن ينتهي موسم التعشيش.

كانت تسحرني بعض التسميات.. وهي من باب التفاؤل.. فالغصن الذي يكنسون به القاعة.. ويُصَفُّون به الغلَّة (فرّاحة) بدل مكنسة.. روث الخيل أثناء درس الحبوب (تَمْر).. الفحم بيَاض.. الأسْوَد أسْعَد.. إذا انكسر الْمحْراث يقولون: الْمحْراث انْجبَر.. إذا اكتمل الوسام أو الجلامة يقولون (الغَلَم بَيَضَت).. كذلك استبدال الأرقام بالكلمات أثناء كَيل الغَلَّة.. الشوال يتّسع عادة لستّ موازير.. جمع مَيزورَة.. شوال بوخَطّ يتسع لثمان.. الغرارة تتسع لتسع.. فتكون الأعداد من واحد إلى تسعة كالتالي:

بَرَكة.. بَرَكتين.. ثلاث بركات.. نربحو.. غَمْسة.. خَيْرَك وزدْته.. شَبعة.. تماني.. نَسْعَدو.. أو الواحد: واحد الله.. والاثنان: لا ثاني معاه.

78

غَوْط (الْمشَلّ) جنوب (اسْلنطة) يفترشه الشِّيح.. تتناثَر فيه أشجار العَرْعَر.. يتحوَّل في الحصيدة إلى حَقل شاسِع أصفر من الشَّعِيْر.. تتخلَّله قِطَع عريضة من القَمْح يُجَلِّلها سواد الْحَسَك.. عندما بدأتُ الرسم بالألوان وجَدتُ نفسي أُزاوِج بين اللونين: الأصفر والأسود!

حَيْن يتراقَص سَراب القَيلولة فوق الغَوْط.. تُصبح خيالات الْحَصّادة الْمُتناثرين مُجَرّد أشباح مُتموَجة.. هَدَّها التَّعَب والقَيْظ.. فَجْأة تظهر الورّادة.. امرأة تحمل برميلاً فوق ظهرها.. يومض رداؤها الأحمر من خلال تَموّجات السَّراب.. ينتفِض الغَوْط.. يضِجّ بالصَّراخ.. يا وَح الحَصّادة بمناجلهم.. أو بقبضات السنابِل.. بعضهم يخلعون قُمصانهم ويومئون بها.. صُراخ الْحَصّادة ارتبط بظهور الأُنثى.. مُجَرَّد لَمعان الرِّداء يكفي لانطلاق تلك الهستيريا

الْجَماعيّة.. فأصبحتُ كُلَّما أسمع صُراخ الرِجال أتلفَّت مُتسائلاً: أين الأُنثى؟!

79

كنتُ أذهب مع أبي في العشيّة التي تسبق وِرْد الأغنام (الظمي).. نذهب إلى معطن فاجية.. وهو ماء عدّ يقع إلى الغرب من قرية جَرْدَس الجَرّاري.. لكنه شحيح.. لذلك فهو موزَّع بالتساوي.. كل عائلة لها دَلو.. يتطلب الأمر أن نحرسه عندما يأتي ظمينا.. حتى يكف ي الأغنام.. فكنّا نبيت عليه حتى تتجمع مياهه ليوم الغد.

في إحدى المرّات.. لم يكن أبي موجوداً.. فأعطتني أمّي بطانية.. أمرتني أن أذهب وحدي:

ـ اركب عَ الحمار.. وعدّي بات عَ المعطن.. وما تخلّي حَد يسقي.. انت اليوم راجل.. إن شاء الله مربوحة.. بجاه النبي بروحه.. طريقك بَيضا.. الله يرَبّحَك علَي عَدّ الْهَبّ والصّبّ.. الله يرَبّحَك علَي عَدَد نَجْم السّما.. وعلَي عَدَد حَيْط الوطا.

كنت طفلاً في الحادية عشرة.. كانت المسافة لا تقل عن عشرة كيلومترات.. خِفْتُ المسافة.. والليل القادم.. والضِّباع التي سيغريها الحمار.. والعفريتة التي تسكن قصر العرَيْجا.. القصر الروماني الْمُتَهدِّم.. لكن ماذا أفعل وقد قذفت أمِّي في وجهي تلك الكلمة اللعينة (انت اليوم راجل).. تلك الرجولة الْمُبكِّرة كانت تسحق طفولتنا.

وصلتُ المعطن عند المغرب.. نزلتُ بالقرب من اللسان الصخر ي القريب من البئر.. حرصتُ على أن أجعل الحمار قريباً منّي حتى يؤنسني.. استلقيت تحت الحَجْف.. لَم أتناول عَشائي.. تغطَّيت.. ضجّت الغابة والليل بعواء الذئاب.. الذئاب كانت تعوي فوق الحيضان.. دفنتُ رأسي بين كفَّيَ داخل طيّات البطانية وأنا أرتجف.. انتظاراً للصب اح الذي يبدو أنَّه لن يأتي أبداً.. لم أعرف ما إذا كان أحد قد سقى من البئر ليلاً.. لكن الذي أعرفه هو أنني عندما رأيت الشمس.. لم تسعني الدنيا.. كانت أمِّي تقول بزهو:

ـ حَمَد بات وحده على فاجية!

كل معطن عِدّ كان له حارس يُنظِّم توزيع حصص المياه.. حارس فاجية كانت له علامة يستخدمها للتوقيت.. ظل شجرة عَرْعَر كبيرة (مزيار).. فإذا وصل الظل بعد الظهر إلى نقطة مُعيّنة.. فهذا يعني بأنَّ توقيتنا قد انتهى.. ولا يُسمَح لنا بالسّقي.

أمّا تعبئة البراميل فهي حكاية أخرى.. فعندما أذهب إلى البئر القريب من قصر المستاشي.. فإنني لا أستطيع حمل البراميل المملوءة.. فأضطرَّ إلى ملئها فوق الحمار.. أضع دلواً في كل برميل حتى تتوازن.. أظلُّ أداوِل بينها حتى تمتلئ.. أؤخِّر سقي الحمار حتى يبقى واقفاً قرب فم البئر.. القاعدة الذهبية هنا هي (ما تسقيش الحمار قبل القْرَب).. أنا لا أجرؤ على الوِرْد بعد الغروب.. فشرود الحمار ليس هو الهاجس الوحيد.. بل الخوف الأكبر يأتي من القصور الرومانية التي يكتنفها الغموض.. وتسكنها العفاريت.

لكنني نجحت في الاحتفاظ بطفولتي.. رغم كل الظروف التي حاولتْ سرقة هذه الطفولة.. فالطفولة ليست مرحلة زمنية من العمر.. بل هي حالة.. قد يكون أهم إنجاز في حياتي كلها.. أنني احتفظتُ بطفولتي ودهشتي حتى الآن.

بعض الأشياء يُنظر إليها في الْمجتمع الريفي بنوع من القداسة.. مثل طائر النِّيسي.. للاعتقاد بأنه هو الذي عشَّش في مدخل الغار أثناء الهجرة النبوية.. العنكبوت الأبيض (أمّ الزّيْن).. الذي نسج خيوطه على مدخل الغار.. القُبّرة المتوّجة لأنها ابتنت أعشاشها في مواضع قدمَيّ الرسول.. لتخفي أثره عن الْمُطارِدين.. الثعبان الأخضر الذي يوجد في الآبار.. للاعتقاد بأنه جان.. نبات الْحَرْمَل.. الذي لا نستطيع الاقتراب منه.. أو قطع أي فرع من فروعه قبل أن نضع على أصل النبتة قليلاً من الملح والشعير.. (كيف الحَرْمَل.. دِيْمة طاريه الكتاب).. أُمِّي تتشاءم من قطع أي شيء أخضر بالقرب من البيت.. على كل حال.. ودون أن نغفل مسألة العقيدة.. فإن النظر إلى الطبيعة بنوع من التقديس.. مهما بلغت درجته.. يبقى من أهم الأسباب ـ إن لم يكن أهمها على الإطلاق ـ في الحفاظ على البيئة.. وقد كان الهنود الحمر في الأمريكتين أكثر الشعوب حفاظاً على البيئة بسبب نظرة التقديس.

عندما نَرِد معطن صِيْرة.. نَمر على المقبرة.. على قُبّة المرابط سِيدي حـ مد بورويِّق.. فندخل خلف أُمِّي.. بعد أن نخلع أحذيتنا خارج القُبّة.. فتعلِّق في رقابِنا الشَّنْزَق الأخضر.. تحفن حفنة تراب من تحت الضريح.. تذروها داخل ملابسنا.. تحكّ بها جلودنا.. وهي تردد:

ـ تستور يا سِيدي حمد.. هذا سيدكم حمد اللي خلَّى حليب امّه دَم.

هذا جعل القَدَاسة عندي مُرتبِطة بالخوف.. القداسة الْمُرْعِبة! أعتقد أنّ للقداسة دائماً رعبها.

تُحذِّرنا أُمِّي من أن نأخذ أي شيء من حَومة الشيخ.. فسيدي حَمَد له حُرمته.. لكن تلك الحُرمة تزعزعت ذات يوم.. عندما عَثَروا على جبح نحل داخل أحد القبور القد يمة أمام القُبَة مباشرة.. فشقُّوا القبر.. استخرجوا العسل.. فأمام العسل تراجعت حُرمة الأموات.. بِمَن فيهم صاحب المقام نفسه.

كان الضريح الذي يتوسّط القُبّة مُغطًّى بقماش أخضر لامع.. لكن نصف القرش الأصفر كان أكثر لمعاناً.. وإغراءً.. وهو يحمل رأس الملك. . وعلى الرغم من أنَّ الملك لم يكن له ذيل.. إلاّ أنه أثناء إجراء القُرعة كانت هناك عبارة مُتداوَلة: (تبَي الراس والاّ الذَّيل؟) فيقولون لنا: (عيب.. قولوا: تبَي الراس والاّ التاج؟).. نتسلَّل مساء كل جمعة.. بعد ذهاب الزوّار.. نتسلَّق الضريح جامعين ما تناثر فوقه من عُملة.. فإذا كان سيدي حمد لم يُعاقِب من أجل شَقّ قبْر أمام قُبّتِه مباشرة.. فهل سيُعاقِب من أجل نصف قرش؟!

82

هناك أصحاب مقامات أخرى أحياء.. وهذا أسوأ ما في الأمر.. فهم آلهة.. أو أنصاف آلهة (يَأْكُلُوْنَ الطَّعَامَ وَيَمْشُوْنَ فِي الأَسْوَاقِ).. يُخيفون الناس.. حتى إنهم أطلقوا ذلك القول الشائع: (لا تْدير كيف ما يديروا.. ولا تنهاهم علي ما يديروا).. وهو قولٌ ذكيٌّ خبيث.. لا تنافسْهم في عملهم.. لا تتدخل.. فلهم أسرارهم.. كان بجوارنا فقيه حاز من الأسرار ما جعله قُطباً من الأقطاب.. مرجعاً ومَحَجّا.. من أسراره الشائعة أنه كان يذهب إلى (اسلنطة) في الليلة التي تسبق السوق الأسبوعية.. يتجه إلى النساء اللواتي

يسكنَّ الكهوف الْمجاورة.. فيجتمعن في حَقْفة إحداهن.. يتحلَّقن حوله.. يكتب لهذه حجاباً للمحبة والقبول.. يعطي تلك خرزة للعين أو للمال أو للحليب.. يغمز ثالثة.. يقرص أخرى.. يتعشَّى.. يبيت مع إحداهن.. وهو ليس فقيهاً في الأحجبة فقط.. بل هو أكثر فقهاً في أشياء أخرى.. فهو يؤمن بالقول الشائع (البيت رواق.. والمراة ساق).. لذلك فهو ينظر إلى الأمور من أسافلها.. ينظر إلى الساق أولاً.. ثم يصعد إلى التفاصيل.. لديه صندوق يعجّ بالأحجبة والْخَرَز ورؤوس الغربان.. يقال إنه يتوضأ بالبول.. يُصلِّي على جلد كلب.. يُصلِّي عارياً وقفاه للقِبلة.. وهو يدسّ أنفه في كل شيء.. يدعونه في الخُطَب والأعراس وجَاهة.. وفي النِّزاعات بين الأفراد أو القبائل.. فمن رضي بحلوله مهما كانت فله البَرَكة.. ومن لم يرضَ فله الويل.. يكفي أن يرفع يديه الطاهرتين إلى السماء ويدعو عليه (الدعوة في اللي ما يرضَى).. كان يُفزعني أكثر مما تُفزعني عفاريت القصور الرومانية.. أظافره صفراء قذرة.. أسنانه أكثر قذارة.. عيناه مزرورتان قريبتان من بعضهما كثُقبَين.. لحيته صغيرة مُدبّبة كذيل العصفور.. تلتصق أسفل ذقنه على نحوِ شائه كلحية التيس.. وجهه مُجعَّد.. متشقِّق.. مكدود.. مُرهَق.. فيما بعد ـ عندما قرأتُ القرآن ـ أدركت أنَّ ذلك هو الرَّهَق الذي وصفهم به الله سبحانه:

(وَأَنَّه كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنْسِ يَعُوْذُوْنَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوْهُمْ رَهَقاً).

83

في صغري كنت أقرأ كثيراً.. وعلى الرغم من أننا كنّا من البدو الرحّل إلا أنني كنت آخذ الكتاب معي حتى وأنا سارح مع الجديان.. كانت القراءة هوساً.. بهرتني شخصيّات الزهّاد.. خاصةً الجُنيد.. وجلال الدين الرومي.. فجأة قررت أن أكون زاهداً.. كانت فكرتي عن الزهد هي ترك ملذّات الطعام.. وأن يكون لباسي متواضعاً.. بالنسبة للحم تركت الكتف إلى الذراع من باب التدرّج في الزهد.. فالمرء لا يمكن أن يكون زاهداً بين عشيّة وضحاها.. وترك الكتف ــ رغم أنها كانت مشطورة طولياً ــ يحتاج إلى مُجاهدة.. أمّا اللباس فقد كان ثوبي مرقعاً أصلاً.. وهي خطوة تلقائية نحو الزهد.

ثم سمعت عن شيخ زاهد ليس بعيداً عن نجعنا.. فشددت إليه الرحال.. استقبلني بفرح.. نظراً لقِلّة مُريديه.. مسح على رأسي وكتفي.. ثم نزلت يده مع ظهري.. حين ارتعشت رفع يده وهو

يبتسم.. كان يمشي حافياً.. قدماه متشققتان.. يصلي على نطع.. قلت في نفسي: (هذا هو الزهد الحقيقي).

ذات مساء ــ وكان الشيخ خارجاً للاستنجاء ــ وجدت عُلبة معدنية تحت وسادته.. يا الله.. أنا أعرف هذه العلبة جيداً.. إنها عُلبة حلوى المينتا الخضراء.. حلوى النعناع.. أو كما كنّا نسمّيها (حلوة ريح).. مكتوب عليها (عمر إبراهيم كانون).. تزعزعت صورة شيخي الزاهد.. لم أنتبه له إلا وهو يضع يديه على كتفيَ.. يضغط عليهما برفق.. قال مبرراً: (حلوى النعناع تسرّح الرقبة من أجل قراءة القرآن)..!

منذ تلك اللحظة أصبحنا نتناول حلوى النعناع يومياً لتسريح الرقبة من أجل تلاوة القرآن.. دون أدنى تأنيب ضمير.. نسمّيها (سرّاحة الرقبة).. نسمّي السمن (دواء البرد).. بشكوط الكريمّا بوخمس قروش (لترطيب الكبد).. تحوّلت كل الملذّات إلى أدوية.. لم أكن أدرك أن الزهد كان سهلاً إلى هذا الحد..!

84

كنتُ أنظر من بعيد إلى منظار روَاج.. وهو مرتفَع هرمي ذو رأس مُدبّب.. أتصوّر أنني إذا صعدت فوقه فستكون السماء في متناول يدي.. سيكون بإمكاني ملامستها.. أصعد.. أحبو على أربع.. فهو يكاد يتعامد مع السهل الْمُحيط.. وعندما أقع على ركبتَيّ لاهثاً فوق القمة.. تتناسل الآفاق في كل الاتجاهات.. يبتعد الخط المتعرّج.. يغيب في الغبَش.. أتساءل: ما الذي يوجد خلف ذلك الغبَش؟ أطيل التحديق إلى الشمال.. فقد كان يسحرني حديث الحَدّارة عن قرى الشمال: اسلنطة.. قندولة.. ماميللى.. مسّة.. الزاوية البيضا.. ومن فوقي تنسحب السماء بعيداً.. أكثر اتّساعاً.. وعمقاً.. وزرقةً.. وشفافية.

85

البيت مفتوحٌ على الآفاق.. لا جُدران.. لا باب.. بل أروِقة تخفق في الريح.. وتُرفَع في القيظ.. من خلال فتحاتها تُطل زُرقة السماء.. نرى القمر.. والنجوم اللمّاعة.. وشهاباً يشق الظلمة

ويتلا شى.. نرى كل ذلك حتى عندما نخلد إلى النوم.. شيء مُدهِش أن تكون السماء آخر ما تراه قبل أن تُغمض عينيك.

ذات ليلة شاتية ضاع الخروف.. اختفى.. تلاشى.. لا رأس.. لا قَرْن.. ولا حتى صُوفة.. وأيٌّ خروف.. الخروف الذي أردنا أن نجعل منه فحلاً.. فقد مات كبشنا في الخريف.

سرَى الخبر.. تنادَى أهل النجع.. تعالت الصيحات:

ـ وين رَيته آخر مَرّة يا راعي العازة؟

تلعثم الراعي.. الذي كان مقروراً.. يرتجف من البَرْد خلف أغنامه التي تُدير ظهورها للمطر.. قال:

ـ في وادي الرّتَم.. في الصبح.

صفق أبي يديه:

ـ في الصبح؟! في الصبح وما فقدته إلاّ تَوّا.. ما انتبهت حتى لصياح أمّه؟

ـ فقدت غيره؟

تردَّد الراعي قليلاً.. ثُمّ أجاب:

ـ لا.

ـ ومنين تبَي تعرف؟

ـ ... ...

ـ بالك يرجَى نَيّن تصَيح نعجة أخرى!

ـ ... ...

ـ قلتُ لك ستين مرّة ما تسرحش في الوادي.

قُبَيل المغرب كنا نتحلَّق حول الكانون.. نتحلَّق حول تلك الحفرة المُتلألئة بالجمرات أمام الجابرين.. على الجابر الأيسر اتَّكأت زريبة من الأغصان.. للجديان التي وُلِدت لتوِّها.. أو التي وُلِدت لأقل من أسبوع.. خلف الجابرين كان السِّدِّي مزدحماً بالجديان.. تفوح منه رائحة العَقِي.

لم يتوقَّف المطر طوال ذلك اليوم.. رغم غزارة الشآبيب.. والبَرَد.. إلاّ أنَّ الجو كان ساكناً.. قطرات الماء تنهمل من كل خالفة من خوالف البيت.

جاءت أمِّي بحزمة من الشِّيح.. نزعت الحبل.. طوَت الدِّيسة.. أخذت تفرش الشِّيح.. تطأ بقدميها الأغصان الناتئة.. حتى استوَى فراشاً ناعماً.. فألْقت فوقه الدِّيسة.

أنزلت الفنَار الْمُعلَّق في حجْنة الجابر.. رجَّتْه لتتبيَّن كمية القاز.. أخذت تمسح المرشة بخرقةَ بالية.

أشعلت الفنار.. تحرّكت الشُّعلة.. تراقصت ظِلالنا طويلةً ممتدَّة.. وتكسرت فوق ألوان الأروقة.

خرجتْ.. أرْخَت الحِبال.. وضعت صخرة صغيرة فوق كل خالفة من خوالف البيت الأربع.. مِمّا جعل القواطر تتجمَّع خيوطاً مُتَّصِلة.

غربت الشمس.. الشمس التي لم نرَها كثيراً في ذلك اليوم الغائم.

عاد أبي مُتعَباً.. مُطرِقاً.. لم يُلْقِ التحية.. نزع عباءته المُبتلَّة.. كوّمها فوق الدِّيسة.

أفسَحنا له.. فجلس.

لم نكن في حاجة إلى سؤاله عن الخروف.. فقد كان كل شيء بادياً على وجهه.

مَدَّ رِجله اليمنى.. حرّك الجمرات الخابية بقدمه العارية.. تلألأ الكانون.. بسط كفَّيه.. أخذ يصطلي.. تنهّد:

ـ لو كان لقيته حتَّى مَيَت تريّحت.

حاولت أمِّي التسرية:

ـ يعوَض الله.. يرزق الله بغيره.

ـ يرزق الله بغيره ونحنا نضيَعوه.

ـ أيش الدّبَارة؟ الله غالب.

قالت ذلك.. وقرّبت طَبَق السّعَف.. وقد تربّع وسطه صحن مملوء بالسّمن حتى حافَّته.. بينما استلقت مُتحلِّقةً حوله قِطَع من خبز التَّنُّور الساخن.. وجبة دسمة تتناسب مع ليلةٍ شاتية.

رفعت أمِّي الفنار فوق علبة السّكَّر.. شرعنا في الأكل...

بين حينٍ وآخر.. كنت أتوقَّف عن غمس الخبز.. لألعق السمن الذي سال مع ذراعي.

... تشرع أُمِّي في استطلاع الغيب.. تُحضر العدة اللازمة للتاقزة: الْمَبْرَم.. الخيط.. الغربال.. ملحتين.. فحمتين.. تبدأ وشوشاتها:

انتِي قبّة من ذهب..

ما ابليس له فيك مَذهَب.

انتِي شارة..

ما ابليس له فيك مارة.

نسالِك.. وربنا يصدِّق في سوالِك.

سلْتك.. لا عن قليل ولا عن كثير..

ولا عن قمح ولا عن شعير..

ولا عَن ذهَب ولا عَن قزِّيْر..

ولا عن سبيباً جارِد..

ولا عن نعاماً وارِد..

سلْتك بفاطمة بنت النبي..

ودّرت اجْمالها في العشيَة..

لقيتِّن في الضحيَة.

سلْتك باربعة واربعين نبي..

أولهم محمد وآخرهم علي.

إلاَّ عن (الحَولي)..

إن كان فيه نصيب..

لا تصيبه لا حارّة.. ولا ضارّة.

تْجيبيها شراحة فراحة..

لا عليك باس..

ولا غضايب ناس.

تُمسك رأس الخيط.. يتدلَّى الْمَبْرَم.. يتحرك فوق الغربال.. باتجاه الملحتين.. فتستبشر أُمِّي.. تطلب مني أن أُدير الغربال.. حتى يصبح الْمَبْرَم في اتجاه الفحمتين.. يبدأ الْمَبْرَم مرة أخرى في تغيير حركته.. حتى يتأرجح بين الملحتين.. فتضحك.. وتُطَمْئِن أبي.

بعد العشاء أوينا إلى الفراش.

قفزت القطَّة.. تمسَّحت بنا وهي تَمُوء.. رفعنا طرَف الغِطاء فاندسَّت بيننا.. وما إن شعرت بالدفء حتى بدأت تُرسِل شخيراً هادئاً.. أشبه بالحشرجة.

اتَّكأ أبي بالقرب من الكانون.. يتململ.. يتقلَّب في فراشه.

كيف ينام.. وأُمُّ الخروف الضائع تُمَزِّق الليل بصياحها الفاجع؟ مع كل صيحة يتنهّد.

توقَّف المطر.. خيوط الماء تحوّلت إلى قطرات.. أحدثت إيقاعاً رتيباً.. تناغم مع شخير القطَّة الهادئ.. ونُباح الكلاب في أطراف النجع.

فجأةً.. ارتفع عواء الذئاب.. صاحت النعجة المفجوعة.. ضمّتنا أمِّي إلى صدرها.. قفز أبي.. لبس عباءته على عَجَل.. وخرج.

هجع الليل...

استسلمنا للنوم على إيقاع القطرات الرتيب.. الْمُتناغِم مع حشرجة القطَّة.. والنُباح الآتي من أطراف النجع.

86

في أواخر الصيف.. في القيلولات الساكنة.. تظهر فجأة دَوّامة الهواء.. كأنّها هبطت من السماء.. أو انشقَّت عنها الأرض.. يلتفّ الغبار.. يصعد عموداً.. نَرْقبه بقلق.. يدور.. يدور.. تكبر دَوّامة العجاج.. تتّجه إلى النّجع.. يكبر قلقنا.. تلهج ألسنتا: (تَكِّي عَ اللي ما يزكِّي).. ومن خلال خفقان الأروقة تحت أنين الأعمدة.. وسط دوران الزّعْزَاعة التي تفتضّ سكون القيلولة.. ترتفع زغاريد النساء في محاولة لترويض الريح الجامحة.. ثُمَّ.. تُغادرنا الريح.. مُشيّعةً بالزغاريد.. ورويداً يهبط من جديد سكون القيلولة.

87

في رمضان.. كنا ننتظر الإفطار.. كما ينتظره الكبار.. لم يكن هناك طبخ في النهار.. بل كنَّا نأكل من الطعام البائت.. هذا إذا وُجِد طعام بائت.. نقترب من أُمِّي وهي ترمي الخبز.. فتأمرنا بالابتعاد.. وعدم النظر داخل التنور:

- تباعدوا.. راكم اتْطيّحوا الخبزة.. اللي زَمّاق وَيْنما ينظر للخبّزة اتْطِيْح! تباعَدَوا تَوّا نرمي لكم قَنّان.

على مائدة الإفطار كنا نغمس الخبز.. بينما كان أبي يرتشف الشَّرْبَة على طريقته الخاصة.. من الصحن مباشرة.. كنا نَرْقُب صحن أبي في عُروجه إلى الأعلى.. وهبوطه إلى السّفرة.. في ذهابه وإيابه.. مع انتهاء معراجه برشفةٍ مُدوية.. واصطدامه بأرض السَّفرة بفرقعةٍ لا تقلُّ دَوياً.

أخيراً يستقرّ الصحن بعد هذه الرحلة الشاقَّة.. يتخلَّص من أعبائه.. فيبدأ حنين العودة إلى المطبخ (العَطْف).. حيث النظافة.. والاستلقاء مُنكفئاً على وجهه بين رفاقه فوق الأغصان (سقّال العَوايز).

88

في السّحور.. يتم إيقاظنا بعد أن يفرغوا من الأكل.. فأجد أنا وشقيقي حسين الطعام بارداً.. لم نكن نائمين.. كنّا نتقلَّب في الفراش.. نتنحنح.. نسعل في محاولةٍ للَفْت الانتباه!

.. . في إحدى الليالي.. كان القِبْلي خفيفاً.. وكما هو مُتوقَّع فقد حلَّق في فضاء البيت رسول القِبْلي.. جُعَل كبير (بُودْرنّة).. بسواده اللامع على ضوء الفنار.. وقرنه الطويل.. الصاعد إلى الأعلى.. المائل قليلاً إلى الخلف.. دار دورتين واسعتين مُستكشِفاً المكان.. ثم هبط هبوطاً اضطرارياً وسط القصعة.. غائصاً بمقدمته في الرَزّ.

نظرْنا إليه بفزع.. ثم نظر كل منّا في وجه الآخر.. وفي لحظة تواطؤ مُعلَن.. انتشلناه من وسط الرَزّ.. قذفْنا به بعيداً.. ثم تابعْنا الأكل!

عندما يتلاشى السّمن من الزّلْفة.. وهي صحن صغير وسط القصعة.. نقول لأمّي الكلمة المعتادة:

ـ القمر طاح.

فتضحك وتسكب لنا بعض السّمن.. وإذا لم يكن هناك سَمْن تقول:

ـ ان كان القمر طاح باتوا.. والا اسْرَوا في الظلمة.

89

كنا نجوع.. فإذا ذُبحت شاة.. وهي لا تُذبَح في كل وقت.. وقد يجود علينا الذئب أو الضبع.. عندما تنهش شاة.. كنا نأكل منها كل شيء.. اللحم.. العصب.. العظم.. الرأس.. المخّ.. وحتى المصارين السّود.. بل حتى الأرجل.. فمعظم أكلنا قفار.. عشاؤنا في الخريف الخبزة المدموسة والبصل.. أو المدموسة واللبن المجفف (المالح).. وإذا ولدت إحدى الشياه.. نطبخ اللبا.. ونشرب الْمِيص.. نقاسم الجدي حصته.. أمّا طنجرة القدِّيد فهي مع العكَّة من أنفس كنوز البيت.. إذا حان وقت رَبّ الْخرّوب.. فإنَّ أُمّي تمنحنا قَنّان الرّبّ.. وتمنح النَّثْل ـ الخروب الذي أُخِذت عصارته ـ للماعز أو للحمير.. لا شيء يضيع عندها.

90

تضع أ مي قِدْر الزّبدة على النار.. قد تكون برمة جديدة.. لم تُستعمَل بعد.. من صناعة العجوز مليحة بنت رجب السعَيطيّة.. أفضل من يصنع التنور والطابونة والبرمة والبقُّوشة.. تعلَّمَتْ ذلك في مُعتقَل المقْرون! فيكون اللقاء الأول بين الفخّار والزّبدة.. تبدأ

الزبدة في الذوبان.. تنتشر الرائحتان.. رائحة الفخّار.. ورائحة الزبدة.. تمتزجان.. تسري الزبدة في مسام الفخّار.. يرتشفها.. يتشرّبها.. يتجلَّل فم البرمة بالرغوة البيضاء الناصعة.. تلك هي اللحظة المنتظَرة.. ننظر في وجه أُمّي.. فتبتسم:

ـ أَرْغَوا.

نبدأ في لعق الرغو ة المالحة بأصابعنا.. حتى تفور الزّبدة.. فتذرِّي أُمّي قليلاً من الدقيق في البرمة.. أوقليلاً من حبّات الكسكسو (ذَوبة البرِيْمة).. والمهمة الأساسية لتلك الخلاصة هي تصفية السّمن من الشوائب.

كنت أتأمل أُمّي وهي تستقطر السَّمن.. وأستغرب حرصها المبالَغ فيه على كل قَطرة.. حين سألتها عن ذلك.. ضحكت وقالت:

ـ الصبايا بدّلن اللحَى بالسّمن.. هذا هو السبب اللي خلَّى الوليّة بلا لحية!

بدا لي أنَّ هذه الصفْقة كانت مُربِحة إلى حدٍّ كبير.. إذا سال قليلٌ من السّمن على يدها تلعقه.. وهي تقول ضاحكة: (الذَّوّابة تَلْحَس اِيْدها).

رغم حرصها الشديد على السّمن.. إلا أنَّها عندما تُنْزل البرمة من فوق المناصب.. تقوم بوضع عدة قطرات على كل مَنْصبة.. وتقول:

ـ المناصب يستاهلن الذَّوقة.. حتى هن يعانَن صَهْد النار!

91

في الخريف نُقلِّب وجوهنا في السماء.. نعدَّ الأيام.. كم يوماً بقي دون البَدْري؟ يحدث أحياناً أن يحلَّ البدري (ابتداء من 15 أكتوبر) ولا يأتي المطر.. تتسرّب الأيام تِباعاً دون أن تكتحل العين بمزنة شاردة.. فتلتقط حَوّا بنت الْحُسَين منساجين من مناسيجها.. تُصالبهما.. تجعل منهما هيكلاً آدمياً.. هيكلاً لأُنثى.. تُلبسها ثوبها المزركش (سُورِيّة الفَرْش).. وعقودها.. وأساورها.. تحملها.. توجّهها إلى السماء في ضراعة.. تتّجه إلى النجع المجاور.. تتبعها جَوقة الأطفال.. تُنشد خلفها:

يا زرافة ... هات الرّافة.

حسّ احوَيلي قال ما ... يريد اقْطَيْرة م السما.

ا لزرِّيعة تحت الطوب ... حنّ عليها يا مطلوب.

ثم ترفع حَوّاء ابتهالاً على طريقتها الخاصة.. من خلف الزّرافة.. كأنَّ الصوت يصدر عن الزّرافة:

يا كريم هات الغَيّث ... الوطْن صاف وَاوْلافِي جلَوا.

تربط حوّاء بين غياب المطر.. وجَلاء أحبابها (لَوّلاف).. ربط الحُب بالمطر لا تخفى دلالته.. لا تخفى أيضاً دلالة الاستسقاء بالأطفال.. تستقبلها نساء النجع بالزغاريد.. تردُّ مبروكة الحاسِيّة:

مشَى بشَوفة العَطْشان ... غلاك دار غَيّم وما نزَل.

هكذا.. بالنشيد.. والغنّاوة.. والزغرودة.. تستنْزِل حوّاء المطر.. لا تعرف صلوات الفقهاء.. ولا سجعهم.. ولا أساليبهم في استدرار

السماء.. تبتهل إلى الله بلغتها الخاصة (يا كريم هات الغيث).. حيث يكون الشِّعر هو الابتهال الذي تسجيب له السماء.

92

الغنّاوة من أول الفنون الشعبية التي تعرّفْنا عليها.. تُدندن بها النساء على الرَحَى .. جارتنا فاطمة الأرملة المستوحدة.. التي كانت حين تنشر غسيلها على أرمام البيت أو على الأشجار المجاورة تقول بحسرة: (أنْعَل بو الغسيل اللي ما فيه ثوب راجل!).. تطحن على ضوء الفنار.. تُقَصِّر ليلَها.. تَكسِر رتابَتَه.. تطرد وحشته وسكونه الْمُرعِب.. تَهْرب من برد الفِراش وتصحَّرِه إلى ضجيج الرّحَى.. تتماهَى مع دوران الصَّخْر الدؤوب.. مازِجةً صوتها بصوت القمح المجروش:

الله يعينهم لَوْلاف ... اخْطرَوا عاونَوني عَ الرَحَى.

سفَيّت لاورا لَكْمام ... بغَيْظ وَيْنما جِيّت للرَحَى.

اللي تكيد في البذّار ... تكامل على ايْدي رَمُوها.

القمح كان لِك مَقْسوم ... جديد تلعبي في حَورته.

لِيْد ما اتْجِي للنار ... محا ذنُوبْها ضَيْم الرّحَى.

إن جاك الشّعِيْر ارْحِيْه ... حِنِّي عَلَيْه مَيْ ساعة عَتَب.

قلِيل يا شعِيْر نجاك ... احْصلْت بَيْن لِيْدَيْن والرّحَى.

والرعاة مع أغنامهم.. وأثناء جَزّ الصوف (الجلاَمة):

منامك ان جاب غدير ... تبقَي معاه يا ضان رايقة.

الضان سارية م الليل ... علي مراحها نازل ندا.

الضان عندها مُوراع ... اتْجيه وينما ماح القمر.

عليه تنظري البعيد ... رفيق زَين يا ضان القمر.

وصبايا النَّجع على البئر.. والحطّابات.. بيت واحد من الشِّعْر.. لا يتعدَّى عشر كلمات كَحدّ أعلى.. بل قد لا يتجاوز خمس كلمات.. يُلخِّص موضوعاً كاملاً.

غنَّاوة العلَم نموذج للاختزال.. حتى حَواء ـ رحمها الله ـ عندما أرادت أن تستسقي.. خاطبت الله هكذا:

يا كريم هات الغَيّث ... الوطْن صاف وَاوْلافِي جلَوا.

امتدحت الله.. وطلبت منه الغيث.. ورَجتْه أن يُقرَب أحبابها.. كل ذلك في سبع كلمات.. ذلك أن الله سبحانه ـ الذي يعلم ما في القلوب ـ ليس في حاجة إلى الإطالة.. ليس في حاجة إلى خُطَب مُتهدِّلة.. مُملَّة.. تعجّ بالسجع الْمُتكلَّف.. والزخارف اللفظية.. التي يَمجّها الذوق البشري.. فما بالكم بالله عَزّ وجَلّ.

93

جارتنا (فاطمة) الأرملة.. ليس لديها أبناء.. كانت تذهب إلى سوق (اسلنطة) على حمارتها الشهباء مع الحدّارة كل أسبوع.. كانت تُحضر الكثير من الحلوى.. توزعها على أطفال النجع.. كنا نسرح بالجديان في طريق عودتها ..نترصد رجوعها من السوق (هذيك عمتي فاطمة بانت من بعيييييد).. كانت وهي توزع الحلوى تسمّينا بأسمائنا: (هذي لحمد.. هذي لحسين.. هذي لعزيزة.. هذي لطاهر..).. كانت تشتري الحلوى لأطفال الجيران.. لتطفئ ظمأها للأمومة.. فالأمهات لابد أن يعطين الحلوى لأحد ما.

كُلّ عدة العروس أصبحت جاهزة: قفَّة العلاقة.. بما تحوي من حنّا وسواك ولُوبان.. سُورِيّة القمَجّة السّلْطنيّة.. حذاء رقعة الفَيلالي.. رداء البرمْبَخ.

تتحرك قافلة الجِمال.. ترافقها الخيل.. تتبعها الحمير.. بعضهم يركب.. بعضهم يقود.. تنطلق الزغاريد.. من فوق الْجَمَل الأمامي يرتفع صوت (غريبة) على الملأ.. مفتتحةً العرس بالصلاة على النبي:

نريد نذكرو لَولاف ... يا ناس صلُّوا عَ النّبِي.

ترد امْباركة بنت حسين مُهنِّئة:

مبر وك يا عزيز الغَرْس ... اللي عليه ساقيتَك جرَت.

تُضيف خديجة بنت يونس:

غزال هامِل القارات ... ورَد عليك يا بِيْر العَسَل.

تستمر الغناوي مداولة (مشَايلة) بين الرجال والنساء.. تبدأ الخيل في مشاوير استعراضية.. على صوت البارود والزغاريد.. وعلى كَفَل كُلِّ حصان أبيض كنتَ ترى نجمة داود السّداسية.. ينقشونها بالحنّاء.. يُزينون بها البيوت أيضاً.. كنَّا نُسميها: خاتِم سَيدنا سليمان.

كان الفرسان يحرقون القرنفل للخيل حتى تُدمن رائحته.. وعندما يَمرّ الفارس بالقرب من النساء.. يَشُمّ الحصان رائحة القرنفل.. فيصهل رافعاً قائمتيه الأماميتين.. يأخذ في الاقتراب من النساء.. وصاحبه (يُكابِد) في إعادته للخلف.. يقف الحصان مرّةً أخرى على قائمتيه الخلفيتين مُثيراً الغبار.. الريح الساخنة تهبّ من منخريه.. ماضغاً اللجام.. الزبَد يتطاير من فمه.. صاهلاً فوق كل ذلك صهيلاً متّصلاً.. وبخجلٍ مزعوم يتنصّل الفارس مُلقياً باللائمة على الفحل الصاهِل: (الحصان وَيْنما يشوف الصبَايا يْجَوْشَن!).

إذا أشرفوا على أهل العروس.. تنبَري الزفَّافة في الغناء بالمناسبة:

ورَا عزيز دار بدار ... لَنظار يا عَلَم نَيّن اشرفَن.

وفي العودة يحدث الشيء نفسه.

بعد غداء العرس.. تبدأ طقوس الدَّخلة...

يقترب العريس.. تحيط به جماعة من الشباب.. يمشون على إيقاع الكشك:

جِبْنا لَك نَقْراش الحِنّا ... يا العريس اَقْرَب وادّنّا.

الجميع يحيطون بالبيت.. الرجال.. النساء.. يتطلَّعون مع فتحات الأروقة.. مع الفواهق.. والخوالف.. في حالة استنفار.. في عيونهم بريق.. يوحي بالشَّراسة أكثر مِمّا يوحي بأي شيءٍ آخر.

يدخل العريس.. بيده قطعة قماش بيضاء.. يرافقه اثنان.. يُمسكان له العروس.. تصرخ بهلع.. تتملَّص.. تستنجد.. تستغيث.

يصرخ صوت مع الفاهِق:

ـ امسكوا الوليّة كوَيِّس يا مراخي.

يحتشدون جميعاً.. بعضهم يدخل ليَسدي يد العون.

أم العروس تطوف حول البيت.. ترفع ذراعيها إلى السماء.. تتضرّع.. تَنْده بجميع الصّلاَّح.. تردِّد: (البنات سِلْعة ذلّ).. (اللي عنده البنات عنده الْهَمّ بالحَفْنات).

يخرج العريس.. هارباً.. بعد أن يُلقي لهم بقطعة القماش.

يرفع أحدهم الخِرقة الْمُبَقَّعة بالأحمر المائل إلى السَّواد فوق فوهة البندقية.. تشرئب الأعناق إلى رؤية الدَّم.. ترتفع الزغاريد.. يُلَعْلِع البارود مُخْتَرِقاً الدَّم احتفالاً بانتهاء لحظة اغتصاب جَماعي! لحظة محمومة.. مشحونة في انتظار الدَّم! أشبه بدم القرابين.. ثم تهدأ العاصفة بعد ذلك الْهَتْك الجماعي للمحظور.. تتنفَّس تلك الهستيريا الجماعية.. في أوّل الليل قبل أن تخرج النساء من بيت العروس يزوّدنَها بالوصية الخالدة: (لا تورِّيه سِرك.. ولا تشَبِّعيه من زِرك)!

95

تفقد المرأة عُذريتها.. تلك هي أمّ الفضائح.. ليس بالنسبة لها وحدها.. بل لكُلّ القبيلة.. (عار النّسا باقي).. العار الذي يسوِّد

الوجوه.. يُمرَغها في التراب.. قد يؤدِّي إلى قتل المرأة.. شرف القبيلة كلِّها متوقِّف على غشاء رقيق بين فخذي امرأة! الشرَف الرفيع! أمّا إذا فقد الرجل عُذريته.. فإن ذلك يعني فتحاً من فتوحاته.. فيتصدر مجالس رفاقه.. ينتفش كالديك.. يُجاهر مَزْهُوّا بفعلته.

96

كان هناك تجار يهود في الجبل الأخضر.. بعضهم يتاجر في الغلّة.. يجمعون القمح والشعير في الحصيدة.. ثم يبيعونها في الفصول الأخرى.. ولأنهم يجمعون من مزارعين ومناطق مختلفة.. فتتوفر عندهم كل أنواع البذور.. فجاء المثل الشعبي: (ملمّدين تلميد شعير اليهود).. كان بعضهم تجاراً جوّالين.. يأتون إلى نجوع البادية على حمار كبير الحجم يختلف عن الحمير المحلية.. اسمه الحمار (الخيناوي).. نُسبة إلى جزيرة خينيا.. كانوا يطوفون على النجوع يبيعون ما يحتاجه البدو: مناجل.. فؤوس.. سكاكين.. قدّاحات.. وبعض طُرَف النساء: عطور.. محارم.. شالات.. مرايا.. مكاحل مُزيّنة بالعَقيق.. سواك.. لُوبان.. حنّاء.. شَبَة.. وشَق.. جاوي.. بوكبير .. فاسوخ.. غوايش ملونة عاجيّة.. عقود.. تكْلِيلة.. كانوا يبيعون بالمقايضة.. أو بالأجل.. يأكلون في النجوع.. ويبيتون..

لم تكن هناك أية إشارة إلى المعتقد.. كنّا نعرفهم بأسمائهم.. أذكر أحدهم اسمه (عقوب).. مجيئه لا يقلُّ بَهجةً عن العيد.. كنا نفرح لمجيئه لأنه يأتينا بالحلوى.. فنلاقيه راكضين صائحين من بعيد.

97

أوّل احتكاك لي بالقرية كان في أحد الأسواق الأسبوعية.. ذهبتُ مع أبي.. كنّا ضمن مجموعة من الحَدّارَة.. بعضهم يجلب شاةً أو شاتين.. بعضهم يأخذ معه الجلود.. أو البيض.. على الحمار الأمامي ديك مربوط برجليه.. رأسه يتدلَّى قرب فخذ الحمار.. كان يوم ثلاثاء.. سوق اسْلنْطَة.. بَهَرني السّوق.. الخضروات.. الفواكة.. الحيوانات.. الطيور.. ودكّان خالي صالح بوتكاميل العريفي الذي يحوي كلّ شيء.. حلوى شاكير.. حلوى النعناع (مَيْنتا) المربّعة التي نُقش على عُلبتها (عمر إ براهيم كانون).. ذلك الاسم الذي عَلِق بأذهاننا مُرتبِطاً بالاخضرار والحلاوة.. في دكّان بوتكاميل أيضاً المواد الغذائية.. الملابس.. الأحذية.. الطناجر.. الفؤوس.. المناجل.. السكاكين.. موس بوحلقة الأحمر.. الحبال.. صابون السّوسي الأخضر الذي يُباع بالميزان.. أشياء كثيرة كانت تُباع بالميزان: الفحم.. القاز.. الزيت.. الصباغ بكل ألوانه.. التوابل.. كان أبي قبل

أن يذهب إلى السَّوق يقوم بوضع قدمي على كاغِط ويُحدِّده بالفحم.. ثم يضع ذلك الكاغط في جيبه كمقياس لقدمي (قالب كراعي).. أبي كان كثير النسيان.. فتوصيه أُمِّي.. تربِط في معصمه خيطاً ليتذكَّر.. حين يسألونه في السوق:

ـ فيدك خَيْط يا بوعقيلة.. عَلَيْش وَصّوك؟

فيجيب أبي ضاحكاً:

ـ الْخَيْط فيدي.. لكن ما عرفْته عَلَيْش مربوط!

ما بَهَرني أكثر هي طاحونة بوحْقَيفة الحاسي المزدحمة بالسّيور والأشياء التي تَهْتَزّ.. وقِمّة مغامرتي كانت القهوة.. فبعد أن أخذ أبي كل حاجياته من السّوق.. اتّجه إلى المقهى الوحيد للعب الكارطة.. حين جلست إلى جانبه طلب لي قَزّوزة.. فقام القهواجي بفتح غطاء البئر الذي يتوسط بلاط المقهى الأسود والأبيض.. أخرج شوالاً مليئاً بزجاجات المشروب البارد.. كان الشوال يُبَيِّت في البئر.. فتح الزجاجة.. مدّها إلَيّ قائلاً: (هاك

رانجاتا من سِيْدك صداقة).. كنتُ أعتقد أنّ رانجاتا تعني مشروباً.. لكن اتّضح لي أنها كلمة إيطالية تعني (برتقال).

98

ابن خالي (سعد عبدالسلام يونس) الذي يقوم بجَلي نصف القرش الأصفر حتى يتحول إلى اللون الأبيض الباهت.. وهو لون القرشين.. في عَتَمة الغروب يذهب للتسوّق من دكّان (سعد عبدربّه بورعيبة).. الطّيّب الودود.. حتّى إنّه لا يعتقد بوجود الشَّرّ أصلاً.. يَمدّ له نصف القرش الأبيض فيظن (بورعيبة) أنّه قرشان.. فيزن له نصف كيلو تَمْر.. وهي أغرب عملية نشوء وارتقاء.. حيث يتجلَّى نصف القرش.. ويتحوّل في العتمة إلى قرشين!

99

كلُّ مَن يُجيد القراءة والكتابة يُنظَر إليه في البادية بشيءٍ من الإجلال.. أوَّل درس في الكتابة تعلّمتُه كان على يد (فرحات موسى بو اللافي الحاسي).. ابن جيراننا.. أثناء رعيه للأغنام بدأ يكتب بعض الخطوط بالفحم على الصخور.. وبحجارة صغيرة بيضاء أحياناً..

كنت أجتهد في تقليد تلك الخطوط.. اعتقدتُ أنني تعلمتُ الكتابة.. ثُم اتَّضح لي ـ بعد دخول المدرسة ـ أنّ فرحات كان أُميًّا.. وأنّ تلك الخطوط التي اجتهدتُ في تعلُّمها لم يكن لها أيّ معنى.. بل لم تكن حروفاً.. فغفر الله لفرحات.

100

لم تكن هناك كتاتيب في النجع.. فلم أعرف القرآن إلا في المدرسة.. وقد ارتبط عندي للأسف بالعصا.. فإمّا أن أحفظ.. أو أُضرَب بقسوة.. فأول جَلْد تلقيته في حياتي كان بسبب القرآن.. لا أتذكَّر أنَّ أبي ضربني م ّرةً واحدة.. تحوّل القرآن في أذهاننا إلى غُول مخيف.. لكنّه كان يبهرني بتكثيفه.. وموسيقاه.. وإيقاعاته:

يُرِيْدُ أن..

يُخْرِجَكُمْ..

مِنْ أَرْضِكُمْ..

بِسِحْرِهِ.

قُل للذّيْنَ كَفُروا..

إِن يَنْتَهُوا..

يُغْفَرْ لَهُمْ..

ما قَدْ سَلَف.

قالَ رَبَ إنِّي..

وهَنَ العَظْمُ مِنِّي.

قالَ كَم لَبِثْتُم..

قال إِنْ لَبِثْتُم.

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَب..

وَتَبّ..

ما أَغْنَى عَنْهُ مالُهُ وما كَسَب.

على الرغم من أنَّ المقطع الأخير يتحدث عن لعنة.. إلا أنه جاء في صورة شعرية رفيعة.. هكذا نرى أنَّ القرآن كان أسبق في تصوير المأساة في قالب جَمالي.. لَم يكن القرآن يسحرني ببلاغته فحسب.. بل لأنَّ هذه الكلمات ـ التي نُردِّدها خلف مُعلِّمنا بصوت جَماعي جهوري ـ قد خرجت من فم النبي!

101

لم تكن هناك مدارس في البَوادي.. كانت في القُرى فقط.. لا يدرس بها إلا سكّان القُرى وضواحيها القريبة.. أمّا الذين يسكنون المناطق النائية مثلنا.. فمكان الدراسة الوحيد هو المدرسة الداخلية بقرية (ماميللى).

في أحد المساءات سنة 1964م قال أبي: (جهّز روحك.. بكرة ناخذك للمدرسة الداخلية في ماميللى).. يا الله.. كم أرعبني ذلك.. المدرسة ارتبطت عندي بالعصا من خلال حكايات التلاميذ الأكبر سناً في النجع.. أحسست بمياه ساخنة تندلق داخل عظامي النحيلة.. كان مطر الخريف في ذلك العام قد هطل مبكراً.. اخضرّت الأرض وأزهرت.. وانبثق القمحي في السفوح.. أحسست بأنني سأغادر تلك الجنة.. في الليل لم أذق العشاء.. كنت واجماً.. كنت كائناً هشاً سهل الكسر.. قالت أمي مشجعة وهي تمط صوتها: (بكرة تمشي للمدرسة.. تقرااا.. وتنجح.. وتاااااخذ الباجيلّا).. اللعنة على الباجيلّا..!

في الصباح الخريفي المُضَبَب أيقظتني أمي.. نهضت بتثاقل.. أخذت رشفة من كوب الحليب.. رفعني أبي فوق برذعة الحمار التي فرشوها ببطانية.. أعطتني أمي صرة صغيرة من الملابس.. وقالت: (الله يربّحك خلّيك ديمة نظيف.. ما اتخليش العويل يضحكوا عليك).. تحرك الحمار ببطء.. يبدو أنه هو الآخر لا يريد الذهاب.. لن أحدثكم عن مشاهد الطريق.. فقد كانت غائمة من خلال دموعي.

ربطنا الحمار في طرف القرية.. حمل أبي الصرّة.. وأخذني من يدي.. يبدو أنه أحس بارتعاشتي فقال: (خلّيك راجل.. المدرسة كويسة).. اللعنة على الرجولة..! أرعبتني فكرة الشارع.. فأنا عشت في العراء الشاسع.. حين سرنا بجوار المدرسة لفتت انتباهي زجاجة في نافذة أحد الفصول بها بصلة.. أدهشتني جذور البصلة داخل مياه الزجاجة.. وقررت في نفسي أن أزرع بصلة داخل زجاجة.

حين دخلنا المدرسة كان التلاميذ في فصولهم.. مشينا في الممر إلى الإدارة.. كان أحد الـ فصول مفتوحاً.. فرأيت المعلّم يضرب أحد التلاميذ بعصاه.. اقشعر بدني.. شهقت.. بالكاد تمكنت من التحكم بالسائل حتى لا يندلق من بين فخذَيّ.

زَجّني أبي داخل الفصل وأغلق الباب.. فوقفتُ مَصعوقاً.. هالني ذلك العدد (الهائل) من الطلاب.. بدا لي ذلك شيئاً يبعث على الدهشة.. حيث لَم يسبق لي أن رأيتُ كل هذا العدد من الأطفال.. فأطفال النجع كانوا محدودين.

كل العيون مُسَدَّدة نحوي.. ارتعشتْ رُكبتاي.. كنتُ على حافّة البَكاء.. لا أذكر كيف جلست.. لَم أجلس على الدَّرْج سوى لحظات حتى دقَّ الجرس.. كان الجرس هو الآخر مَثاراً للدهشة.

كنت أعتقد أنني سأجد أبي عند خروجي.. لكنه كان قد اختفى.. هو والحمار! الْتفتُّ ناحية الجنوب.. مُحاولاً التطاول على مِشْطَي قدمَيّ.. لكن.. لم يكن هناك أثر لأيّ أحد دون تعرّجات الأفق القِبْلي! واقتربْتُ من حافّة البُكاء مرّةً أخرى.

في صبا ح اليوم التالي دخل المدَرِّس.. متأبطاً عصا رقيقة.. لسوء الحظ كنت جالساً في المقدمة.. في الدَّرْج الثاني.. قال لي المعلم (عثمان المسماري) حين جاء دوري.. والذي يبدو أنه لم ينتبه إلى أنني طالب جديد.. فالعام الدراسي كان في بدايته.. قال لي:

ـ صَبَي.. سَمَعْ.

نفَّذت الشطر الأول من هذا الأمر ووقفت.. ذلك أنني أعرف معنى كلمة (صَبَي).. غير أنَّ الكلمة الثانية (سَمَع) بدت لي غريبة.. لم أسمع بها من قبل.. ليست في قاموسي.. ولَمّا لم أنطق بشيء.. فقد حسب المعلم أنني لم أحفظ السّورة.. أذكر أنها سورة الإخلاص.. فضر بني عدة جلدات بعصاه الرقيقة الحارقة.. ونعَتَني بأشياء لم أعد أذكرها بالتحديد.. غير أنَّها تدور حول الإهمال والغباء.. أنا أصغر أشقائي (الصّيفي).. لم يسبق لأحد أن ضربني..

لذلك كان صِدامي أول يوم مع عصا المدَرِّس قد ذكَّرني بحادثَتَي ذَبْح العَناق.. وإلقاء الجِراء في البئر.. فلعنتُ المدَرِّسَ أيضاً.

لكنَّني سأظلُّ مَديناً طوال حياتي لمعَلِّمي (عثمان عبدالله عبدالْمجيد المسماري).. فهو أوَّل من عَلَّمَني الأبْجديّة.. مَنَحَني دهشة الكلمات الْمَصْفوفة على الورقة البيضاء.. وعلى الرغم من القَسوة الظاهرة فقد كان ودوداً.. حريصاً على تعليمنا.. لا يَمَلّ إعادة الشَّرْح.. حِيْن قابلته بعد حوالِي أربعيْن عاماً ـ وقد تقاعد من الوظيفة ـ كان يَمشي مُطْرِقاً.. يُحدِّث نفسه.. وحيداً على الرصيف.. على هامش الشارع.. وعلى هامش الحياة أيضاً.. أحسستُ برغبة جارفة في أن أ حْمله على عنقي إلى الأبد! أحسستُ أيضاً بفداحة وضع الْمُعَلِّم في بلادنا.. راتبه قليل.. يعيش على الكَفاف.. ليست له حظوة أو مكانة اجتماعيّة.. حتَّى شيخ القبيلة الأُمِّي أرفع منه مكانة.. نجعل منه مادَّة لنكاتنا وسخريّتنا.. تُرَى متى نلتفت إلى هذا الْمخلوق ا لذي يُعَلِّم أمّةً بأكملها.. نَمُرّ عليه جميعاً.. نتجاوزه.. حتَّى الساسة والزّعماء والجنرالات.. وهو قابع في الفصل.. بجوار السبّورة السوداء.. تمتلئ رئتاه بغُبار الطباشِيْر.. لا يَبْرح الفصل إلاّ إلى التقاعد أو القَبْر! وبعد أن يقضي زهرة عُمره

في التعليم.. ندَّعي أنَّنا نُكرَمه.. فنَمْنحه ورقة مُزخرفة.. أو صفيحة معدنيّة تحمل اسمه.. أهذا كلُّ شيء؟!

بعد العصا.. واجهت شيئاً أكثر رُعباً.. فقد جاء إلى المدرسة فريق صحّي لتطعيمنا ضد الكوليرا.. (حَيّه عليكم.. يبّوا يفصْدوكَم).. أول مرّة أُشاهد فيها الممرضات الصينيات.. كان معهن موقد صغير.. ووعاء لغلي الماء لتعقيم الإبَر.. عندما اقتربت منّي الممرضة.. صرخ المدَرِّس: ارفع كمّك.. تحاشيتُ النظر إلى الإبرة.. حرصتُ على سَدّ جميع منافذ جسدي.. خشيت أن يصدر منّي أي صوت.. أو يخرج منّي أي شيء فأتعرّض للسخرية.. والعار.

102

في حصة الحساب طلب مني معلّمي أن أكتب الأرقام في كراسة الحساب داخل المربع.. فقلت له: (المربع ضيّق يا أستاذ).. فقال لي: (تعوّد عالتنسيق.. نلقى الرقم طالع برة المربع نعطيك جلدة).. كان ذلك نوعاً من العذاب لطفل بدوي يعيش في العراء.. اعتاد على السعة في الأمكنة.. حتى حين نجلس كنّا نستلقي لأننا اعتدنا على ذلك بسبب عدم استعمالنا للكراسي.. أو نجلس جلسة

(الاحتباء).. وهي الجلوس على الأرض وشبك اليدين حول الركبتين.. لأننا لا نملك حوائط نستند عليها.. المهم.. مع الزمن اعتدت على الضيق.. أقصد على التنسيق..!

103

لن أنسى أبداً ما حييت كيف تعرّضتُ إلى حالة مَسْخ.. كادت أن تغيّر مجرى حياتي.. كان ذلك في الصّفّ الثالث الابتدائي.. في الدَّور الثاني من العِلّي.. وهو مبنى إيطالي.

كُنّا نرتجف من البَرْد.. بعضنا يضع يديه بين فخذيه ويحكّ كفَّيه ببعضهما.. بعضنا الآخر ينفخ في راحتيه وينشق بأنفه.. التلميذ الجالس إلى جواري كان حافياً.. يرفع قدميه مُتحاشياً بَرْد البلاط.. أسنانه تصطكّ.. وجهه مُزرَقّ.. بين الحين والحين يتغربل.. يُصدِر صوتاً غريباً: (بررر.. بررر).

أعيننا مُعلّقة على مقبض الباب...

دار الم قبض.. دخل المدرِّس عيسى مُتأبِّطاً عصا الزيتون.. حاملاً نتائج امتحان الأمس.. الذي كان يتلخَّص في كتابة النشيد الوطني (يا بلادي بجهادي وجِلادي) عن ظهر قلب.. وبالتشكيل.

بدأ يوزِّع الأوراق:

ـ سالم.. جيِّد.

ـ طاهر.. كوَيِّس.

ـ إبراهيم.. يعني.

ـ صالح.. آهو.

ـ حَمَد.. حمار.

ـ خليل.. غزال مصَوّر.

ـ منصور.. جحش.

مضى يوزِّع الأوراق والألقاب..

حين انتهى من ذلك.. أمر كُلَّ مَن تحصّل على لقب حمار أوجحش أن يقف.

هزّ رأسه إلى الأمام وإلى الخلف:

ـ العام الدراسي في منتصفه.. وأنتم مازلتم عاجزين عن حفظ النشيد الوطني.. عال والله!

جاء دور عصا الزيتون.. حتى لجأنا إلى الأجزاء المعدنية من الأدراج لتبْريد أكُفِّنا الْمُلتهِبة.

ـ والآن.. قال المعلم.. سأقسم الفصل إلى صفَّين.. صَفّ الغزلان.. وصف الحمير.. الناجحون إلى اليسار.. وهؤلاء هم الغزلان بالطبع.. والراسبون.. الساقِطون.. إلى اليمين.. وهؤلاء مَن هم؟

ولَمّا لم يسمع جواباً.. صفع الدَّرج بعصاه وصرخ:

ـ مَن هم؟

رَدَّ الفصل بصوت واحد:

ـ الحمير يا أستاذ.

ـ عظيم.. هيا تحرَّكُوا.

تردَّدنا.. نظَر بعضنا إلى بعض.. بدأنا في الانحناء ببطء نحو حقائبنا.. حدثت فوضى أثناء عملية الفَرز.

ـ انتظروا يا أوغاد.. سأُرِيكم.

وبلمسةٍ من عصا المعَلِّم السحرية.. أصبحنا غزلاناً في اليسار.. وحميراً في اليمين!

لم أستطع الخروج إلى الشارع ذلك المساء.. كنت أخشى صيحات التلاميذ.. وأصابعهم الْمُسدَّدة نحوي.. وهم يُردِّدون كلمات المدرِّس الفصيحة.. يَمطُّون أصواتهم:

ـ ها هو الحمااااار.

ـ انظروا إلييييه.. ما أطول أذنيييييه.

ـ يبَرطِـع.

ـ انتبِهوا .. سيضع أنفه في التراب بعد قليل ويتمرّغ.

ظللتُ ليلتَها أبكي على سريري في العنبَر.. لم أذق العَشاء.. محاولاً من خلال الدموع أن أحفظ ذلك النشيد اللعين.

في صباح اليوم التالي داخل الفصل كنتُ أتلفَّت إلى اليسار.. أنظرُ بحسَدٍ إلى غابة القرون الْمُتشابكة.. المعقوفة.. الرشيقة.. بينما يبدو اليمين مُكتظًّا بالآذان الطويلة الْمُتهدِّلة.

بدأ المدرِّس يمشي بين الصفَّين.. توقَّف.. أشار نحو صفِّنا:

ـ صَبَي يا جْحَيْشي الصّغَيَر.. الكوَيِّس.. وسَمَّعْني النَّشيد الوطني.

على مسافة العصا كنت أرتجِف.

ـ ارْجَا يا جْحَيْشي .. قبِّل مسعودة أولاً.. حِبّها.. ثم سمِّعني نَهقة أونهقتين.

وقهقه مُقرَباً العصا من شفتيّ.

كان المدرِّسون يتنافسون في صُنْع عصيِّهم.. بعضهم يُفضِّل شجر الشّماري لملاسته.. آخرون يُفضِّلون السَّخّاب فهو لا يتشقَّق.. أمّا الزيتون فهو جامع لكل الْمَحاسِن! كان جسد مسعودة أملسَ لامعاً.. وخصرها ليناً.. حتى إنه ينطوي في شبه دائرة.. عندما تهوي من السماء تُحدث صوتاً يُشبه الر يح العاصفة.. كان يحلو للمدرِّس أن يُجرِبها في الهواء.. عندما ننفض أيدينا من حرقان العصا.. كما يُرفرف العصفور الذبيح.. يقهقه قائلاً: (العصا تسَخِّن)!

قبّلتُ رأس مسعودة مُرتجِفاً.. ثم حاولتُ النهيق.. اختنق صوتي.. فاضت دموعي.

ـ باهي.. باهي.. أعفيناك من النهيق.. سَمَعْ.

وسَمَّعتُ.. نعم سَمَّعتُ.. تأتأتُ مَرَّةً أو مرتين.. لكنني أتْممتُ النشيد الوطني وبالتشكيل.

ـ ماشي الحال.. قال المدرِّس.

حَكَّ رأسه بالعصا.. ثُمّ أضاف:

ـ كويِّس.. عندنا حمار يُمكنه أن يرتقي إلى مرتبة غزال!

لم أُصدِّق.. لم أكن أُدرك أنَّ المسافة بين الحمار والغزال بكل هذا القُرب.. وفكَّرتُ: (ما أغبَى الحمير.. ألا يُمكنها أن تحفظ النشيد الوطني ـ حتى بدون تشكيل ـ لتتحوّل إلى تلك المخلوقات الرشيقة الشاردة في البَراري؟).

أحسستُ بخِفَّة.. تقلَّصت أطرافي.. تخلَّصتُ من ثقل الأذنين.. قدماي بدتا صغيرتين حتى كاد الحذاء يسقط! وفي لحظة نادرة من لحظات تجلِّي الحمير.. قفزتُ من مكاني.. لم أقفز سوى ثلاث زُلَّيجات فقط.. لأصبح في اليسار غزالاً رشيقاً.. يستنكف أن يلتفت إلى الحمير المجاوِرة.

104

في إحدى جَولاتي لاستكشاف باقي معالِم (ماميللى) سمعتُ هديراً في إحدى البنايات.. اقتربتُ بحَذَر.. وقفتُ في الباب.. كان صاحب الطاحونة (حامد بوعمر السّعيطي) يقف وسط السّيور والغرابيل الْمُهتزّة واضعاً يديه على خاصرتيه.. خَدّه وجزء من

عنقه أبيض من الدقيق.. حين سألني وعرفني رحّب بي.. دعاني للدخول.. فقد كان يضع بعض شياهه مع أغنامنا (خليطة).. من يومها وأنا كلّ مساء أستنشق رائحة دقيق القمح.. أراقب بدهشة الغرابيل الراقصة.. وألف (حامد بوعمر) وجودي المسائي.. حتَّى إنّه سَمَح لي بالمشاركة في بعض أعمال الطاحونة السهلة كجَمْع القِرْفة في شوال واحد.. كنت أحاول ـ من خلال ضجيج الطاحونة ـ أن أسمع كلمات الغنّاوة التي يُدَندن بها وهو جالس على أحد الشوالات.. وتذكَّرت المهاجاة على الرَحَى في النَّجع.. وبدا لِي أنّ كلّ طحِيْن يحتاج إلى غِناء.

105

ذات مرّة قَرّر مُعلِّمُنا عيسى أن يكون يومُنا الدراسي في الهواء الطَّلْق.. فأخَذَنا إلى الغابة المجاورة للقرية.. كان ذلك في يوم ربيعي مُشْمِس.. جَلَسْنا تحت شجرة.. اقترَح الْمُعَلِّمُ أن نبدأ حصَّتَنا بغناوي عَلَم.. وطلَب منِّي أن أفتتح جلسة الغناء.. لأنني أصغر (الغَنّاية).. لَم أتجاوز العشرة أعوام.. أذكر أنَّني غَنَّيت:

حَتَّى عَ الوساد تسِيْل ... العَيْن مالْها وان عَ البكا.

هذا صحيح.. لا مُبالغةَ فيه.. فقد كنتُ أبكي كثيراً من شِدَّة الضرب.. على الوساد وعلى غير الوساد.. ثُمَّ جاء دَور مَن يُجيدون الغَناوي حقًّا.. سالِم صالح بوتكاميل.. وخليل علي عمر.. وغيرهما.. وكان إدريس خليفة بالقاسم (يُمَجْرِد).. لَم أعُد أذكر من مَجرودته إلا قَوله:

سَلَّم حالَك هذا حالِي ... حال الدِّيْك عَلَيّ حَبْلَيّن.

لَم نَعُد إلى القِسْم الداخلي إلاّ قُبَيل الغداء.. لا أعرف ـ حتَّى الآن ـ كيف تَحَوّل يَومُنا الدراسي كُلُّه إلى (غناوي العَلَم).. يبدو أنَّه كان أمراً مُبَيّتاً من مُعَلِّمنا.. أذكر أنَّه عندما رسب خليل علي عمر في مادّة الدِّيْن.. قام الْمُعَلِّم برفع درجاته دون غيره من الطَّلَبة الراسبين.. لأنَّه كان بارعاً في غناوي العَلَم!

106

الدراسة في القسم الد اخلي كانت نَقلةً في حياتي.. عُزِلت عن الأسرة وأنا طفل.. كان معي شقيقي حسين.. يسبقني بفصلَيّن.. لم نكن نرى أهلنا إلا في عطلة نصف السنة.. أو العطلة الصيفية..

أول درس تعلَّمتُه في المدرسة الداخلية هو الخضوع للسّلطة.. سُلطة رئيس الفصل.. سُلطة رئيس العنبر.. سُلطة المدرِّس.. سُلطة الناظر.. سُلطة مباشر المدرسة صالح بن غشِّير.. سُلطة مُتعهِّد التموين مصطفى بوبريق السعيطي.. وسُلطة مشرف العنابر.. المناوب الليلي حسين عبدالنبي الجوَيفي.. وهو من أنصار عصا الزيتون.. والذي أكَّد لنا أنه يملك في مؤخِّر رأسه عينين خفيّتين.. أكثر اتساعاً ورؤيةً من عينيه الظاهرتين.. فكنّا نظلُّ جامدين.. حتى عندما يُدير لنا ظهره.. في إحدى الليالي.. أثناء المذاكرة.. كنّا نتهامس.. كلٌّ منّا على سريره.. فصرخ بنا أحد المدرِّسين من خلف زجاج النافذة.. وعاقبَنا.. وهي نافذة مرتفعة لا يُمكن الوصول إليها إلاّ بسُلَّم! فكنّا بعد ذلك نتهامس حتى في الممرّات الْمُعتمة خوفاً من رقابة العيون الخَفيّة والظاهرة والْمُتلصِّصة.. وبدأنا نعتقد أنَّ لكل شيءٍ عيناً خَفيّة.. غير أنني تعلمتُ أيضاً في القسم الداخلي معنى الانضباط.. يكفي أن أذكر مجريات يوم واحد:

نستيقظ في الصباح الباكر.. بعض الطلبة المعروفين بثقل النوم ـ كابن عَمِّي سليمان زايد عقيلة ـ يتمُّ إيقاظهم من قِبَل زملائهم بسحب الأغطية من فوقهم.. وأحياناً برشّ الماء البارد على وجوههم.. بعد الغسل في الحمّامات المخصّصة.. نقوم بترتيب

الأسرَّة.. نطوي الأغطية والملاءات بطريقة خاصة.. حتى تبدو كُلّ الأسِرّة نسخةً واحدة.. يقرع جرس المطعم.. فنصطفّ لتناول وجبة الإفطار.. فجرس المدرسة.. فطابور الصباح.. ثم جرس وطابور استراحة الإفطار.. فجرس وطابور الدخول.. بعد جرس انتهاء اليوم الدراسي.. يأتي جرس وطابور الغداء.. فالمذاكرة الإجبارية.. حتى الرابعة تقريباً.. من الرابعة إلى المغرب نحظَى بفترة حُرّة.. نتمكَّن فيها من اللعب بالكُرَة.. وهي كُرَة نصنعها بأنفسنا من الجوارب الْمَحشوَّة بالخِرَق الممزَّقة (كُورة شِخْشِيْر).. ثم يدقُّ جرس العَشاء ويلتئم الطابور الأخير.. فالمذاكر ة الليلية تحت إشراف المدرِّسين.. الذين يسكنون أيضاً في العلِّي بالقرب من العنابر.. في العاشرة ليلاً تنتهي المذاكرة.. يُصدر رئيس العنبر فتح الله علي بورَجعة.. وهو طالب كبير السنّ في الصفوف الْمُتقدِّمة.. أوامره بالاستعداد للنوم.. عندما يتأكد من أنَّ جميع ا لطلبة باتوا في أسِرَّتهم.. يقوم بإطفاء مصباح الكيروسين الوحيد (الكلُوب) حفاظاً على قاز الدولة الليبية! فالكهرباء لم تكن قد وصلت بعد إلى القرية.. هكذا ينتهي اليوم مُزدحماً بالأجراس والطوابيْر والأوامر.. من الانطلاق والتصرف على السجيَة في النَّجع.. إلى الانضباط في القسم الداخلي.. الذي

أدين له بالفضل حتى يومي هذا.. إذ أنني أعتبر نفسي شخصاً مُنضبِطاً إلى حَدٍّ بعيد.

لكنَّ الأشياء الأكثر إبهاراً في المدرسة كانت هي الألوان.. ألوان الشمع واللوح.. عندما وقعت في يدي لأول مرّة تشمّمتُها.. قضَمتُها بأسناني. . تذوقتها بلساني.. كل لون على حِدَه.. مُعتقِداً أنَّ لكل لون طعمه الخاص.. بدأتُ الرسم باللون مباشرة.. متجاوزاً القلم الرصاص.. فقد كنت أرسم قبل دخولي المدرسة.. أرسم بالفحم على ألواح الصخور وجدران الكهوف.. أرسم بإصبعي مباشرة على التراب.. كانت روحي مُشبَعة بالألوان.. الألوان الضاجّة لحكايات أم الخير.. وللطبيعة وتجلياتها في بيت أُمِّي.. حتى أيام الأسبوع لها ألوان في ذهني.. فالسبت أزرق سماوي.. الأحد برتقالي.. الاثنين أبيض.. الثلاثاء أسود.. الأربعاء أصفر.. الخميس أخضر داكن.. الجمعة أبيض.. حتى القِيَم لها عندي ألوان: فالصبر أصفر.. الحق أحمر.. الخير أخضر.. الشر أبيض.. الفضيلة سوداء! لا أدري من أين جاءت ألوان الأيام والقِيَم والأشياء الْمُجرّدة؟

107

عندما يطفئ رئيس العنبر الضوء الوحيد الخافت.. ويعمّ الظلام.. نبدأ في سماع أصوات غريبة.. أشياء تقفز.. تتنطّط على البلاط.. تصطدم بالدواليب الحديدية.. وأرجل السرايرِ المعدنية.. نسمع كلمة عفريتة تتردد همساً.. لا نجرؤ على التحديق في الظلام.. تدقُّ قلوبنا بعنف متوافقة مع دقّات تلك الأشياء الغريبة على البلاط.. ننكمش على أنفسنا.. نرتجف.. نسد آذاننا.. نبيت في رُعْب.. غير أنَّه لا وجود للأسرار في الأقسام الداخلية.. فيما بعد.. اتَّضح لنا أنَّ (إسحاق صالح المنصوري).. وهو طالب من أمّ الرزم.. كان يُلقي بالكُرات الزجاجية (البَطْش) في الممرات.. في عتمة العنابر أيضاً تئنُّ مفاصل الأسِرّة المعدنية تحت وطأة شهواتٍ مكبوتة.

108

في المدرسة الداخلية تعلَّمنا أيضاً أنه من الممكن مواجهة السّلطة.. وحتى الخروج عليها.. فقد حَدَث أن وجد الطلبة فأراً ميتاً في المطعم.. فأضرَبوا عن الطعام.. عن الرز العرَج.. وعن

الدراسة.. تلك أول مرة أسمع فيها كلمة إضراب.. كانت كلمة غامضة.. لكنني أدركتُ أنَّ أحد معانيها هو التخلُّص من أعباء الدراسة والمذاكرة الإجبارية.. استمر الإضراب أياماً.. كل مجموعة من الطلبة تُعدَّ طعامها في الغابة المجاورة على حسابها الخاص.. ولَمّا عجز الناظر عن إيجاد حلّ.. جاءنا مسؤول من المعارف.. اجتمع بالطلبة الكبار الذين يقودون الإضراب.. أذكر منهم عَلِي اعْطَيْر.. صالح بوعقبة.. عبدالعزيز أحمد.. ثم انتهى كل شيء.. تَمّ تحسين الأكل.. والتشديد على النظافة.. وزّعوا علينا بطاطين جديدة.. بل جاء عُمّال جزائريّون لصيانة القسم الداخلي بأكمله.. لحظتها لم يكن مفهوماً لدَيّ رضوخ الناظر ومسؤول المعارف لمطالبنا.. كُنّا نُضرَب لأقلّ سبب.. فمن أين استمد الطلبة كل هذه القوة؟! بعد ذلك.. عندما أجّلوا لنا الزّرْدَة ذلك العام.. كنّا نحتجّ هاتفين على إيقاع الكشْك:

زَرْدتنا تَمَّت تستاخَرْ ... كِلّ خميس يقولوا لاخَرْ.

ضَرْبة ناظِرنا الجديد ... أسهل من وَكْلة عَيْش العِيْد.

رغم هَيبة المدرِّس في ذلك الزمان.. إلاّ أن للطلبة صولاتهم أيضاً.. فقد قام الطالب علي اعْطَيْر بضرب أحد المدرِّسين.. اعتقدنا أنهم سيفصلونه من المدرسة نهائياً.. لكن بعد التحقيق اتّضح أن المدرِّس قد تجاوز حدوده.. فكنّا نتشفَّى قائلين: (ما تناطحَن فيها عَنْزَيْن).

109

كنت أرى رقّاعة عريضة جميلة في بيت أمي.. تتمدد في منتصف الرواق.. تختلف عن كل الرقيع.. في طابور الصباح لأول يوم في المدرسة اكتشفتُ أنّ تلك الرقّاعة هي عَلَم ليبيا! كانوا يُعلِّموننا كيف نُحيَي العَلَم باحترامٍ أقرب إلى التقديس.. لكنني عجزتُ عن النظر إلى علم ليبيا بألوانه الثلاثة ونجمته وهلاله بمهابة.. فقد ظلّ في ذهني مُجرد خرقة مزخرفة في بيت أمّي.. وتعلَّمتُ أنَّ الابتذال عدوّ القداسة الأوّل.

110

في القسم الداخلي سَمعتُ حكايات أخرى.. تَختلف عن حكايات أم الخيْر وعبدالرسول.. سَمعتُ الحكايات الماجنة.. والأحاجي الداعرة.. تعلَّمتُ رسم الأشكال الفاضحة بالفحم على الجدران.. والكتابة بالبول على التراب.. تعرّفتُ على الكثير من السلوكيات المراوغة.. فقد كان بعض الطلاب في الفصل يتعمّدون إسقاط الأقلام.. ثمّ ينحنو ن لالتقاطها مسترقين النظرَ إلى البنات من الأسفل.. رأيتُ الطلبة الكبار يتسلَّلون ليلاً بعد المذاكرة وإطفاء النور.. للبحث عن الحمير الإناث.. في النهار يسرقون الدجاج بواسطة المصارين.. يعقدون طرف المصران.. يمدّونه إلى الدجاجة.. عندما تبتلع طرفه ينفخونه.. فيسد رقبتها.. فلا تُصدر أي صوت.. اللصوص الصغار.. الأقل جُرأة كانوا يتسلَّلون لجمع البَيض من تحت شجيرات البَطّوم الملاصقة للعنابر.

111

ذات ليلة.. بعد إطفاء النور.. قرّر بعض الطلبة الكبار الخروج في إحدى غزواتهم الليلية.. في سكون الليل فوجئنا بمشرف العنابر

حسين الجويفي يقف وسط العنبر.. أضاء الكلُوب.. تصفَّح وجوهنا.. في عينيه نظرة ارتياب.. بعض الطلبة لم يستيقظوا.. مسح بنظره المتفحِّص كل الأسرَة.. العدد كامل.. ليس هناك أي سرير شاغر.. سأل:

ـ ما فيش حَد غايب؟

ـ لا.

هَزّ رأسه هَزّة ذات دلالة.. تقدَّم من أحد الأسرَة.. رفع البطانيّة من فوق الطالب النائم.. فوجد تحتها مخدتين مُمدَّدتين.. كانت مفاجأة لنا أيضاً.. كثير من الأسرَة كانت على ذلك النحو.. مخدّتان مُمدَّدتان.. ومن السهل معرفة الغائبين.

بعضنا ينام مباشرة بعد إطفاء النور.. ليس لديه علْم بتصرفات ا لطلبة الكبار.. كما أنهم يحاولون الاحتفاظ بالسريّة.. لكن على الرغم من ذلك عُوقبْنا جميعاً.. وفق القانون الشيطاني (الْحَسَنة تَخُصّ.. والسّيئة تَعُم).. فيما بعد وجدتُ ذلك القانون اللعين في الجيش أيضاً.

112

كان الطلبة من مختلف مناطق بَرْقَة.. من اجد ابيا إلى مسَاعَد.. منهم طلبة حَضَر.. لكنَّ الأغلبية من البدو.. في الوقت الذي كان فيه الحَضَر يفتخرون بتحضُّرهم.. ويُعيّرون البدو بالقمل.. والممارسة الشاذّة مع الحيوانات.. كان البدو من جانبهم يُعيّرون الحَضَر بالميوعة.. يحتفون بالبداوة.. يتحدثون بزهو عن فحولتهم التي تطال أي شيء!

113

أحد مُدراء المدرسة الداخلية كان يختلف عن الآخرين.. اسمه صالح حسين بو وازنة.. كان رياضيّا يجيد كرة القدم.. والكرة الطائرة.. يبهرنا بالكثير من الحركات البهلوانية على الحصان الخشبي.. بل وكان يلعب معنا (الزّغَدة).. الأهم من ذلك كُلِّه كان فنّاناً.. يُغنِّي ويُجيد العزف على العُود.. كان يعاملنا بأُبوَّة.. ذلك الناظر ـ رحمه الله ـ استطاع تحسين صورة المدرِّس المتجهِّم.. الذي لا تفارقه العصا.. أذكر أنَّه كان حريصاً على نظافتنا.. فقاموا برشّ كل واحد منّا بمسحوق أبيض ضد القمل.. كان هناك عقرب ضخم

يتمدد فوق كيس المسحوق.. فتساءلتُ عن علاقة العقرب بالقمل.. فقيل إنَّ المسحوق عبارة عن سُمّ العقرب بعد تجفيفه! وهي نظرية تفتّق عنها ذهن جاري في الدَّرج.. لكن ظهور مسحوق الغسيل (التايد) كان هو الثورة الحقيقية على القَمل.

114

بعد العَشاء افتقَدوا أحد الطَّلَبة.. اسمه (الرجباني).. من المرج.. أسمر.. هادئ.. صَموت.. خَلُوق.. يُجيد كُرة القدم.. كان مَحبوباً من الجميع.. آخر مرّة رآه أحد الطَّلَبة قُبَيْل الْمغرب عند (صيْرة أمَ شْزرة).. وهي منطقة بها كهوف وآثار رومانيّة.. اتَّجَه كُلُّ المُدرِّسين وطُلاّب القِسْم الداخلي.. وبعض سكان القرية إلى (أم شْزرة).. أخذوا يُفَتِّشون الكهوف.. في تلك اللحظة خشيتُ على الرجباني من سُكّان الكهوف الذين سمعتُ همساتهم أثناء بحثنا عن (حجار الليل) بالقرب من النَّجْع.. بالفِعْل وجَدوه مُمَدَّداً في حَقْفة.. كان مريضاً.. يهذي.

115

في أحد الصباحات اصطفَّت في ساحة المنطقة (البياصة) أمام المدرسة والعنابر مجموعة من الحافلات (التاونَس البلْمينا).. لقد قرّرت إدارة المدرسة أن تُرينَا البحر!

اتّجهت الحافلات إلى الشمال.. إلى بحر سوسة.. كان شعوري مختلَطاً.. فأنا أريد رؤية البحر.. لكن البحر كان ـ ولا يزال ـ يُخيفني.. ففي الجنوب حيث النجع كانت هناك بعض الآبار التي لا تَمتلئ أبداً.. أو هكذا يبدو.. مهما صبّ فيها السّيل.. كانوا يُحذِّروننا من الاقتراب منها.. يقولون:

ـ هَذي وذْن بحَر.. اللي يطيح فيها تاخذه للبحر!

فكُنّا ـ حين تقترب الجديان من الفوهة ـ نرشقها بالحجارة من بعيد.. بل نتحاشَى حتّى النظر ناحية تلك الفوهات السوداء.. فإذا كانت أذن البحر مخيفة إلى هذا الحَدّ.. فكيف هو البحر نفسه؟! على الرغم من هذا .. ومع تردُّدي.. وبقائي في الخلف.. أدهشني البحر.

116

الـ قسم الداخلي منحني الخصوصيّة.. فلدي سريري.. دولابي.. ملعقتي.. كوبي.. آكل وحدي في صحني الخاص.. أصبح بإمكاني أن أقول: بطانيتي.. مخدّتي.. كنتُ أفتقد هذه الخصوصية في البيت.. فهو لم يكن مُقَسّماً من الداخل.. فإذا نمت فأنت تنام أمام الجميع.. كنّا نتغَطّى بغطاءٍ واحد.. نأكل في قصعة واحدة.. حتى الآن أجد حرَجاً حين أنام في وجود الآخرين.

117

قُرِع الجرس في ساحة المدرسة.. لم يكن جرساً عاديّاً.. كان الجرس الوحيد الذي نتمنى أن يدق إلى الأبد! كان آخر يومٍ من أيام الدراسة.. بتلاشي صدَى الدَّقات امتدَّت أربعة أشهرٍ من الإجازة الصيفية.. أربعة أشهر بعيداً عن المذاكرة الإجبارية وعصا المدرِّس.. حين كان الصّيف لا ينقضي أبداً!

اجتزتُ الصف الخامس.. كنتُ ألوِّح ببطاقة الدرجات (الباجَيلاّ).. أريها لكل مَن أمرَّ به.. حتى عجائز ماميللى حدَّقن في

الباجَيلاّ.. فحشرتُ إصبعي في زاوية الورقة لأريهن كلمة ناجح.. فزغردن على طريقة العجائز.. بِهَزِّ السبّابة بين الشفتين.

أقف لألتقط أنفاسي.. كنتُ مزهوّا بكشف الدرجات.. لم تكن درجاتي مرتفعة.. لكنَّ هذا لا يهم.. طالما لا توجد دائرة حمراء واحدة.

كل شيءٍ كان رائعاً واستثنائيًّا في ذلك اليوم.. رنين الجرس.. السطح الْمُتَهدِّم للفُرْن القديم.. طاحونة حامد بوعمر السعيطي.. كنيسة الطليان القديمة بقامتها الشامخة.. ونوافذها الدائرية الملونة.. وسطحها الْمُحدَّبِ ذي القرميد الأحمر.. دكان سعد بورعيبة المعتم.. حتّى الكلب الأجرب الذي نراه دائماً في الحقول المجاورة.. كان في ذلك اليوم رائعاً على نحوٍ ما.

كانت فرحتي غامرة.. طاغية.. لو سالَت تلك الفرحة التي تملأ أعماقي لكانت طوفاناً جارفاً.

ركضتُ.. ركضتُ.. لاح بيتنا من بعيد.. ازدادت سرعتي.. تعثَّرتُ.. سقطتُ.. انبثق خيط من الدّم من راحة يدي التي

انغرزت بها الأشواك.. تجعَّدت الباجَيلاّ قليلاً.. نزعتُ الأشواك.. رششتُ قليلاً من التراب على الجرح.. نهضتُ من جديد.. لم تكن تلك اللحظة لحظة أَلَم.

دخلتُ البيت مبهور الأنفاس:

ـ نجحـ.. نجحت.. انظري يا أمِّي.. ما عنديش كعكة حمرا!

قوّست أُمِّي سبَّابتها فوق فمها.. ناشِرةً أصابعها الأخرى بعيداً.. أطلقت زغرودةً مبحوحة.. لم تكن كزغَاريدها في الأعراس.. رنّانة.. مُدوِّية.. لكن لا بأس.. لكل فرحة زغرودة.

ـ جهِّزي لنا الحبل يا أمِّي.. بكرة الدرجاحة.

لم تغب شمس ذلك اليوم حتى دخل الخبَر كُلَّ بيت: (بكرة الدرجاحة).

لَمّا كانت البيوت مُتناثِرة في حنايا الوادي.. فقد شارك الجميع في نقل الخبَر.. كل طفلٍ يَبلغ الذي يليه.. يناديه من بعيد.. من السّفح إلى السّفح.. على عادة أهل الريف.. حتى الوادي شاركَنا

الإعلان.. فتردَّدت الأصداء: (بكرة.. بكرة.. بكررررا.. الدرجاحة.. درجاحة.. درجاححححا).. باتت الأرجوحة حلم تلك الليلة.

في الصباح الباكر اتَّجهنا إلى الصنوبرة الكبيرة.

الشمس تنعكس فوق ضِفاف الوادي.. أمّا عمق الوادي فيغصّ بالضباب.. كان كبِرْكةٍ كبيرة تبْرز من خلالها رؤوس الأشجار وحوافّ الأجراف الصخرية.. فوق السطح الأبيض لبَحيرة الضباب حلَّقت أسراب الغربان.. تنغمس في الضباب وتصعد إلى الشمس.. تتشاكس.. تتقلَّب.. فيلمع ريشها الفاحم.

في الْمُنحنَى.. تحت ستار الضباب.. كانت الحياة قد دبّت.. تجاوبت الأصوات.. صياح الديوك.. النُباح.. التحايا الصباحية.

بدأ الرفاق ينبثقون.. من الفجوات.. من فوق الصخور.. من تحت الأغصان.. رؤوسهم مُبلَّلة.. أخذ عددنا يزداد.. لم يعد يفصلنا عن الصنوبرة سوى التلَّة التي بدأنا نرتقيها.. صدمت أنوفَنا رائحةٌ ثَرَى.

فوق قمَّة الْمُرتفَع وقفْنا.. دُهِشنا.. صُعِقنا.. اتَّسعت أحداقنا.. نظر بعضنا إلى بعض.. وإلى الشجرة التي كانت ترقد حُطاماً.. مُهشَّمة.

تَمَلَّكَنا الغضب.. اجتاحتْني رغبة في التقيّؤ.. تذكَّرتُ عَناقي المذبوحة.. والجِراء الملقاة في البئر.. فبكينا.. بكينا كما لم نبكِ من قبل.. انزوت فرحة الأمس في ركن قَصِيّ داخل نفسي.

بالقرب من الحُطام كان الوحش يربض هناك.. تلك الجَرافة المخيفة.. التي كأنما لم تُصنَع إلاّ لاقتلاع شجرتنا.. خُيِّل إليّ بأنني رأيتُ دماء الشجرة مُتخثِّرةً على أسنان الجرّافة.

تُرى كم قاومَتْ شجرتُنا.. كم صارعت قبل أن تسقط.. لم نكن نُصدِّق بأنَّ صنوبرتنا العملاقة من الممكن أن تتزحزح من مكانها.. كانت مُميّزة من بين كل الأشجار.. يبدو البلُّوط بمحاذاتها قزماً.. أحسستُ بخواءٍ في أعماقي.. شيء ما في وجداني وفي ذاكرتي تَمَّ جَرفُه.

... في المساء استلقيتُ في الفراش على ظهري.. شابكاً يدَيّ فوق صدري.. مُسترجِعاً أحداث الصباح..

استسلمتُ للنوم...

رأيتُ طائراً ضخماً ناشراً جناحَين عملاقَين.. يغيب طرَفاهما خلف حَوَافِّ الوادي العُليا.. عيناه بارزتان ككُرتَين مُلتهبتين.

حمل الطائر الخُرافي تلك الآلة اللعينة بين مخالبه القوية.. تبِعتُه بنظري حتى صار نقطةً سوداء تتلاشَى خلف التلال البعيدة.

أخذت الصنوبرة المُهشَّمة تنهض.. سافرت جذورها إلى الأعماق.. انتصبت واقفة.. امتدَّت فروعها في الفضاء.. اهتزّت أغصانها.. ارتفع صوتها.. تردَّدت أصداؤه عَبر مُنحنَى الوادي: (بكرة.. بكرة.. بكررررا.. الدرجاحة.. درجاحة.. درجاحححا).

118

سنة 1967 م ظهر الراديو في النَّجع.. كإحدى حسنات الحرب! بدأتُ أسمع عن إسرائيل.. موشي ديان.. جولدا مائير.. الاتحاد

السوفييتي.. ألكسي كوسيغن.. أمريكا.. سمعت خطابات عبدالناصر الْمُلتهبة.. وأخبار الحرب.. كانوا في النَّجع يتحلَّقون حول نشرة لندن.. الإذاعات العربية لم تكن لها مصداقيَة.. كانوا يُحرِكون المؤشِّر إلى أن يعثروا على (البي بي سي).. ثم يخدشون المذياع فوق المؤشِّر مباشرة.. وهكذا فإنَّ الخدش يعني محطة لندن.. أو(لندرا) كما كانوا يسمّونها.. كانوا عند سماع دقّات (البِق بِن) الشهيرة ينظرون إلى ساعاتهم.. يقول أحدهم بزهو: (ساعتي عَ البِق بِن).. الإذاعات العربية لم تكن لها مصداقيَة حتى في التوقيت! غير أنَّ ما جذبني بشدَّة إلى الراديو لَم تكن الحرب.. ولا خطابات عبدالناصر وشعاراته.. بل ما شدَّني هي الأغاني.. فيروز على وجه الخصوص.. كان هناك إجماع على فيروز.. فكل من في النَّجع كانوا يُحبّون الاستماع إليها.. حين تُغَنِّي فيروز تطلب منِّي النساء أن أرفع الصوت.. عندما قُدِّر لي أن أدخل السينما سنة 1968 م في مدينة البيضاء.. شاهدت فيلماً غنائياً لفيروز بعنوان (بيّاع الخواتم).. وفِ يلماً آخر بعنوان (بنت الشاويش).. رأيت فيروز للمرّة الأولى.. تحيط بها جَوقة من الأطفال بطائراتِهم الورقية.. وهي تغني:

طيري يا طيّارة طيري ... يا ورق وخِيطـان

بَدِّي أرجع بنت زغيرِي ... على سطح الجيران

وينساني الزمان على سطح الجيران.

كانت أغاني فيروز أكثر قيمة عندي ـ بِما لا يُقاس ـ من خطابات عبدالناصر وشعاراته التي لا أفهمها.. حتى الآن.. وبعد مضي عشرات السنين.. فإنَّ أغاني فيروز هي التي كُتب لها البقاء.

119

بعد حرب 1967م ظهرت الفلسطينيات.. قذفت بهن الحرب.. فأخذن في الطواف على النجوع.. كان الجميع يتعاطف معهن.. لم يكن هناك ما يُقدَّم لهن سوى الأكل والمبيت.. أمّا المال فلم يكن في الوسع توفيره.

تستقبل أم الخير إحداهن:

ـ مَرْحَبَة.. الله يفرِج عليكم.. الحرب حتى نحنا اكتوينا بنارها.. لكن النصارى أرحم من اليهود.. وحياتك حتى نحنا كلينا الزنباع والر ينش.. لكن تَوّا الخير واجد.. نعطوك الدقيق.. والرزّ..

والمكرونة.. والطماطم.. والزيت.. والفواح.. ما يخِصّ ولا خير.. معاكم في الحافية وفي المثرودة.. لكن الفلوس.. والله العالي في سماه.. ما لقيناهن حتى لرواحنا.. بوهن مَيّت له سنين!

120

سنة 1969م.. عندما قامت الثورة الليبية.. كنتُ طفلاً في مدرسة اليقظة الابتدائية بمدينة البيضاء.. فوجئنا ذات صباح بمدرِّس الرياضيات رجب وهو يجمع المدرسة كلها.. يوزِّع علينا جوالات صغيرة (زغَابي).. يجعل كل واحدة منها على شكل طربوش.. في أعلاه بالون مُلَوّن منفوخ.. عندما لبسنا الطرابيش.. ونحن نتباهى كالديوك بالبالونات الملونة فوق رؤوسنا.. وضعَنا رجب في طابورين طويلين متوازيين في الشارع العام.. قال:

ـ نبَي منكم كلمة واحدة.. بصوت عالي.. كلمة (واحد).. مهما قلت أنا.. قولوا وراي (واحد).. مفهوم؟ نبَي صوت يزلزل الدنيا.

تحرّك الطابوران.. طابوران من الشوالات.. نجوب شوارع البيضاء.. أخذ رجب يصرخ مُلوِّحاً بقبضتيه في الهواء.. ونحن نُردِّد خلفه بملء حناجرنا الطفولية:

ـ شعبٌ عربيٌّ.

ـ واااااااحد.

ـ جيشٌ عربيٌّ.

ـ واااااااحد.

ـ أُمّة عربية.

ـ واااااااحد.

ـ لَمّا نقول أُمّة عربية.. قولوا واحدة يا بهايِم.

ثم استمر يصرخ بشعاراتٍ مُعادية لكل شيء!

في اليوم التالي لم يحضر المدرِّس رجب إلى المدرسة.. اختفى أياماً.. ثُمّ فجأة عُيِّن عميداً للبلدية! لم يبقَ في منصبه سوى أسابيع.. حتى قفز من النافذة نتيجة شِجار قبَلي.. اختفى مرةً أخرى.. ثم ظهر بعد ذلك في العاصمة.. مديراً للإذاعة.. بينما كدَّسْنا نحن الشوالات في مخزن المدرسة.. استمتعنا بفرقعة البالونات.. البالونات الملوّنة التي رفعت مُدرِّسَنا إلى الإذاعة.. قبل أن تُفرقع تحت أقدامنا.

121

سنة 1969 نزلتُ في أحد الآبار القديمة.. أحضرتُ عصفور نِيسي.. طبختُه مع مكرونة في عُلبه زيت قديمة.. لم أعرف مقدار المكرونة المناسب لحجم العُلبة.. ففاضت.. تفلّتت من فوق الحوافّ! كانت تلك أول طبخة أُعدّها.

122

حين دخلت المدرسة الإعدادية بدا لي اسم (حَمَد) قديماً.. بل ومُخجِلاً في المدينة.. ففكّرت في تغييره.. لكن كيف يُمكنني تغيير اسمي؟ كلهم يعرفونني باسم (حَمَد).. فكّرتُ أن أجعله (أحمد).. لن يُكلّفني ذلك سوى إضافة ألف.. فبدأتُ في كتابة اسمي (أحمد) على كرّاساتي.. وحقيبتي.. على الدَّرج.. وحتّى على حذائي! بل وفي كُتّيب العائلة أيضاً وضعت ألفاً قبل (حمد).. هكذا مع الزمن تخلّصتُ من اسمي القديم دون أيّة إجراءات إداريّة.. لكنني الآن أتمنى أنني احتفظتُ باسمي القديم (حَمَد).

123

عاد نُوح من سُوق الأربعاء.. سُوق ماميللى الأسبوعية.

كان قد باع ديكاً.. وبيضاً.. وبعض الجلود.. جاء بالسّكَّر والشاي.. وشيء من الخُضَر والفاكهة.

جلس.. تثاءب بصوتٍ مرتفع.. حتّى دمعت عيناه.. وبدَت خيوط اللعاب داخل فمه.. ثُمَّ تنهَّد بعمق.. مِمّا جعل زوجته تتوقَّف عن العَجْن وتسأله:

ـ خير؟ كَنَّك؟

ـ اليوم في السَّوق.. باعوا عِجل سمين بخمسين جنيه.

شهقت الزوجة.. رفعت يدها من العجين:

ـ بخمسين جنيه؟! صحيح؟

ـ يعني نكذب؟!

ـ لا.. حاشاك.. بالك غلطت في الثمن.

ـ لا.. ما غلطت.. بخمسين جنيه.. جنيه ينطح جنيه.. ويذبحن الطَّير.

ـ هَذي هي العجول والاّ بلاش.

ـ سيَبوه مع أمّه.. هَمّلوه.

فتل شاربه.. حكّ خلف أذنه:

ـ تعرفي.. أنفَكّر في إني نشر ي بقرة.. ونسيَب معاها العجل.. نْهمّله.

سألت الزوجة مُستغرِبة:

ـ يصحّ هذا؟ نشري بقرة وما نحلبها!؟

ـ آه.. إن كنت نريد خمسين جنيه.. مفروض نطلب أكثر من الخمسين.. عجلي أكيد يكون أسمن.

ـ لا.. لا يمكن.. لا بدَّ نحلبها.

ـ مش ممكن نسمح لك تحلبيها.

ـ أيش تريدهم يِ قولوا عَلَيّ؟ باير.. عندها بقرة وما فيش في بيتّا لا لبن.. ولا سمن للعيد؟

ـ ما تتعبيش روحك.. ما فيش حليب.

ـ لا بدَّ نحلبها.

ـ أنا هَنا الراجل.. ما فيش حليب.. يعني ما فيش حليب.. تريدي تضيّعي عَلَيّ العجل؟!

و.. قذَفها بالحذاء.. صدَّتْه بيدها اليَمنَى.. فتدحرج بعيداً.. وقد علِقت به بعض قِطَع العجين.. لكنَّ طرَف الحذاء أصابها تحت عينها.. فوَسَمَها بكدمة.

في الصباح الباكر.. قبل صياح الديك.. استيقظنا على صوت جارتنا وهي تنادي.. تنشج بالبكاء.. تندب حظَّها العاثر.. وبختها المائل.

سألها أبي:

ـ خير.. أيش فيه؟ إن شا الله نُوح موش مريض؟

ردَّت وهي لا تزال تنشج:

ـ ضربني.

ـ لا حول ولا قوة إلاَّ بالله.. عَ الصبح؟ الناس تقول يا فَتّاح ياعليم.. يا رزّاق ياكريم.. عليش ها المرّة؟

حاولت أُمِّي أن تجبر بخاطرها.. قادتْها من ذراعها إلى الداخل.. جلست.. أخذت تُكفكف دموعها.. تتمخَّط في طرَف ردائها.

اجتمع الجيران في بيتنا عند الضُّحى.. الرجال يُقهقهون.. النساء يُلقين باللائمة على نُوح.. وعلى صنف الرجال بصفةٍ عامة.

راغ أبي إلى قطيعه.. جاء بجدي سمين.

ـ يا جماعة صلُّوا عَ النبي.. يا نوح اخْزِي الشيطان.. كل ها المشكلة علي ش ان حليب بقرة ما زالت في السّوق؟!

تعالت القهقهات.. والتعليقات الساخرة:

ـ لا.. ما عندهاش حَقّ.. إن كان حلبت البقرة تضَيّع العجل.

ـ وساعتّا ما يجيب حتى صُولدي صغَيَر.

ـ ويخسر نُوح!

انتهى كلُّ ذلك الصَّخَب.. انتهى بمائدة عامرة.. خُتِمت بالشاهي الأخضر المرَغْوي.

عاد نُوح.. تتبعه زوجته.. وقبل أن يتواريا.. احتدَّ الجدال بينهما ثانية:

ـ لازم نحلبها.

ـ قلت ما فيش حليب.. يعني ما فيش حليب.

124

فرحات راقد ريح (ما يكسب حتى النوم الْهَنِي).. كان جالساً أمام بيته ذات ضُحى.. واضعاً ابنه في حِجْره.. ينظر إلى البعيد.. وهو يُمرر راحتيه فوق عنق الطفل وكتفيه.. وكعادة المحرومين.. الذين تمتلئ نفوسهم بالأماني.. بدأ يحلم.. يحلم بصوتٍ مرتفع:

ـ السنة إن شاء الله في وقت الحرث.. نبذر مَيزُورة قمح.. تطلع صابَة.. نحصدها.. تجيب شوال قمح.. نبيعه.. نشري عَنْز.. تلد.. تْجيب جَ دْيَيْن تَوْم.. نبيعهن.. نشري حمارة.. تلد.. تْجيب جحش.. يكبر.. نتاجر عليه.. وبعدها...

قاطعه ابنه:

ـ الجحش نركب عليه.

فصرخ فرحات في ذهول.. دافعاً بابنه بعيداً:

ـ لا.. انزل.. تقطع ظهر الجحش!

125

حلْبَ القمر من الطقوس الْمُرعَبة في الريف الليبِي.. كنت عندما أسمعهم يتحدثون عن حلاّبات القمر.. أتَخيّل ثلاث نساء.. لا أدري لماذا ثلاث بالذات.. ثلاث نساء أسطوريّات.. تمتد قاماتهن بين السماء والأرض.. بضفائر طويلة أفعوانية.. يضعن بينهن سَطْلاً خُرافياً.. تغيب حوافُّه خلف السّحب.. يُسمَع صوت الشّخْب

وسط أمواج الحليب الهادرة.. ظل هذا في مُخيلَتِي.. حتى وقع بالفعل...

أهل القرى والنجوع كثيرو الغرق في البحر.. حتى أولئك الذين وُلِدوا على الشواطئ.. ويلحس الْمَدُّ أسافلَ جدرانهم.. ظلت علاقتهم بالبحر محدودة.. ملتبسة.. فذات مساء.. غرق أحدهم في البحر.. كانت صرخاته المكتومة تصعد فقاعات من أعماق المياه.. تنفثئ فوق السطح.. كان شخصاً عاديًا.. نكرة.. وماذا في ذلك؟ كُلّ الناس يموتون.. كل الأحياء.. حتى النجوم تنطفئ وتهوي.. لكن مهلاً.. لقد كان وحيد أبويه.

موت وحيد أهله ليس حدَثاً عاديًا عندنا.. إنه كَنْز يمشي على قد مين.. يُشار إليه بالبنان.. كما يُقال.. لكن لا قيمة لهذا الكَنْز إلا بعد أن يُدْفَن.. بعد أن يُوارَى في التراب.. على عكس كل الكنوز.

غرق في المساء.. بات في البحر.. مع الحيتان.. لم يُخرِجوا جُثَّته إلاّ في الصباح.. تَمّ غسله وتكفينه في مستشفى المدينة.. لكنَّ أُمَّه أصرّت على أن يُدفَن في جَبّانة القرية.. تُريده قريباً منها.

تهامست حلاّبات القمر بفرح.. ثلاث عجائز يعرفن أين يبيت الشيطان:

ـ مات وحيد هَله.. وحيد بُوه وامّه.

موت الوحيد لا يتكرّر دائماً.. إنَّ يده اليَمنَى تساوي وزنها ذهباً.. يكفي فقط أن تُمرّر على الكسكسو أثناء الفَتل.. بعد ذلك يصبح الكوب الواحد لا يُقَدَّر بثمن.. ما أكثر الأشياء التي يمكن عملها بهذه الحَبَات.

عند مغيب الشمس.. خرجت العجائز الثلاثة.. تسلَّلن إلى المقبرة.. وقفن بجانب السّور.. ينتظرن طلوع القمر.. كانت أنظارهن مُتَّجهةً نحو الشرق.. مُعلَّقةً فوق حافَّة الأفق الْمُظلِم.

بدأت البَهْرَة تُحَدِّد خط الأفق.. ظهرت حافَّة القمر.. بدا نصفه.. في عيون العجائز لمع بريق.. خلفهن تحرّكت ثلاثة ظِلال باهتة.

كان القمر أبيضَ حليبيّاً.. وسط هالة شفّافة.. يتلقلق.. يكاد الحليب يقطر من أطرافه.. انعكس ضوؤه فوق السّور.. وفوق القبور الساكنة.

شرعت حلاّبات القمر في الطقوس.. خلعن ملابسهن.. تجرّدن تماماً.. لمعت في يد إحداهن سكّين.. بدأن الطّواف حول القبور.. يتمتمن.. يرفعن رؤوسهن ويخفضنها في حركة موزونة.. نظرة إلى القمر. . نظرة إلى القبر.. شعورهن الشمطاء تلمع مُتماوِجةً تحت ضوء القمر الحليبِي.

توقّفن.. بدأت اثنتان في نبش القبر.. بينما استمرت الأخرى في تلاوة تعاويذها.. أزحن التراب.. ظهر اللحد.. كفّت العجوز عن تمتماتها.. برقت السكّين في يدها.. نزعن اللحد .. و.. كانت المفاجأة..

لم تعد للميت يد يُمنَى.. فقد أكلَتْها الحيتان.. لكن آخر تلك الليلة شهد قمراً باهتاً.. مخسوفاً.. جَفَّت أثداؤه.

تلك الحادثة جعلتْني أنظر إلى القمر دائماً على أنه أنثى.

126

درسْنا في الجغرافيا أننا نمتلك ــ تقريباً ــ أطول ساحل على المتوسط.. وأنَّ بحرنا يعجّ بالأسماك.. حتى إنَّها تتقافز إلى

الشاطئ.. فلماذا أكلْنا الزنباع والرَيْنش؟ لماذا نُدير ظهورنا للبحر.. نتبع قطيعاً من المواشي.. نلهث وراء غيمة في السماء.. لا ننظر إلى أبعد من قرون ماعزنا.. نعتقد أنَّ نهاية العالم خلف البحر.. لا مدرسة في البوادي.. لا مستشفى.. ولا حتى صيدلية واحدة.. وبدلاً من ذلك فليس لدينا سوى حَفنة من الفقهاء المشعوذين.. يبصقون على وجوهنا.. يُعلِّقون في رقابنا الأحجبة والخَرَز.. ويصفون لنا البول دواءَ للجروح! لماذا؟

127

في نهاية الستينيّات وبداية السبعينيّات بدأ البدو يقتربون من القُرى والمدن.. بعضهم ذهب للعمل بشركات النفط.. بعضهم دخل الجيش.. أو عمل بالْمُدن وهم يسكنون الضواحي.. الكثير منهم طووا بيوتهم.. سكنوا المدينة بالفعل.. فنشأ بناء عشوائي في أطراف المدينة.. براريك.. أو بيوت حجرية مسقوفة بالصفيح الم موّج.. سرَت العدوى إلى بيتنا.. بدأ التململ.. والشَّكْوى.

في أحد الأيام صاحت أُمِّي في وجه أبي:

ـ كمّلْنا عَمَارنا رِعْيان.. وآخرها.. اضرب الطُّوْب تَلْقَى التراب.. الناس كلّها قربت المدينة.. تريّحتْ.. وقالت لا إله إلا الله.. ونحنا نابتيّن في ها الجـ لجالة الشّهبا.. في ها السطّارة اليابسة.. ها الجشّة.. ها السفَرْتَح.. لا جار.. ولا قابس نار.

... انتقلنا إلى ضواحي ماميللى في بداية السبعينيّات.. القرية التي بناها الطليان سنة 1935م.. أو بتعبير أدقَّ.. بناها الليبيون تحت سِياط الطليان.. بعض من شارك في البناء لا يزال حيّا يُرزَق.. بُنيت في منطقة اسمها (أمّ شزرة).. لكنّ الطليان لا تعنيهم ذاكرتُنا.. فسمّوها (ماميللى).. وسَمّيناها (عمر المختار) في بداية السبعينيّات.. لا أدري إن كان ذلك إحياءً لذاكرتنا.. أم نِكايةً في الطليان؟!

ولا يزال الجِراب عامراً...

الجبل الأخضر.. قرية عمر المختار (ماميللى) 1999م.

ـ أحْمد يوسف عقيلة.

ـ الميلاد: 1958 في أحد نجوع بادية الجبل الأخضر ـ ليبيا.

الإصدارات:

1 ـ الخيول البيض.. قصص.. 1999 الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع.. مصراتة.

2 ـ غناء الصراصير.. قصص.. 2003 دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان.. بنغازي.

3 ـ الْجِراب (حكاية النجع) 2003 دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان.. بنغازي.

4 ـ عناكب الزوايا العُليا.. قصص.. 2003 منشورات مجلة المؤتمر.. طرابلس.

5 ـ حكايات ضِفْدَزاد.. 2003 دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان.. بنغازي..

6 ـ الحرباء.. قصص.. 2006 المجلس الأعلى للثقافة.. بنغازي.

7 ـ غنّاوة العلم (قصيدة البيت الواحد).. 2008 دار الإبل.. بنغازي.

8 ـ قاموس الأمثال الليبية.. 2006 دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان.. بنغازي.

9 ـ خراريف ليبية.. حكايات شعبية.. 2008 مجلس الثقافة العام.. ليبيا.

10 ـ درب الحلازين.. قصص.. 2010 دار الحوار للنشر والتوزيع.. اللاذقية.. سوريا.

11 ـ غُراب الصّباح.. قصص.. 2010 دار الحوار للنشر والتوزيع.. اللاذقية.. سوريا.

12 ـ الكلب الرابع ـ قصص.. 2013 دار أركنو للنشر والتوزيع.. الزاوية.. ليبيا.

13 ـ ديوان الشاعر الشعبي عبدالكافي البرعصي (غناوي عَلَم).. 2014 دار أركنو للنشر والتوزيع.. الزاوية.. ليبيا.

المخطوطات:

14 ـ ضفدع الوحل.. قصص.

15 ـ الشتّاوَة (بنت الغنّاوَة).

16 ـ الأغنية المصاحبة للعمل (غنّاوة جَزّ الصوف).

17 ـ الأغنية المصاحبة للعمل (الترجِيز).

18 ـ غنّاوة العَلَم عند المرأة.

19 ـ القاموس الليبِي للنفاق.

20 ـ قاموس الدلالات الصوتية الليبية.

21 ـ قاموس الكُنية في اللهجة الليبية.

22 ـ قاموس أُصول المعاني.

23 ـ ضوء الكلام. (شهادة على الكتابة).

24 ـ ديوان الشاعر الشعبي مراد البرعصي.

25 ـ ديوا ن الشاعر الشعبي ارحيّم جبرين.

26 ـ ديوان الشاعر الشعبي إدريس الشيخي.

27 ـ فارق التوقيت ـ مقالات.

تُرجمت بعض أعماله إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية.

نشر قصصه في الكثير من الصحف والمجلات الليبية والعربية: الشلال ـ أخبار بنغازي ـ أخبار اجدابيا ـ الأفريقي ـ الجماهيرية ـ الشمس ـ أويا ـ قورينا ـ لا ـ الفصول الأربعة ـ الثقافة العربية ـ المجال ـ العرب اللندنية ـ العربي الكويتية ـ المعرفة السورية ـ أخبار الأدب المصرية ـ الحياة التونسية ـ الشاهد ـ الزمان ـ القدس

العربي ـ ألواح الصادرة بإسبانيا ـ ضفاف الصادرة بالنمسا ـ تموز الصادرة بالسويد.. والكثير من المواقع العربية على شبكة الإنترنت.